التوجيـــه القرآنـــي

للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

التوجيه القرآني
للنبي صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع
٢٠١٥/١٤٥٢٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-108-7

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية
محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+
E-mail: alamia_misr@hotmail.com

سلسلة التوجيه القرآني

التوجيــه القرآنــي

للنبي صلى الله عليه وسلم

(ردًّا على من يقول: إن القرآن من تأليف محمد

وليس من عند الله تعالى)

الشيخ/ محمد أحمد هاشم

من علماء الأزهر الشريف

الدار العالمية للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

إن الناظر في تاريخ الأمة الإسلامية ماضيها وحاضرها، ليدهش من كم المؤامرات والخطط التي تحاك لها في النور والظلام، ومن كم المحاولات التي لا تنتهي للنيل من تاريخها في الماضي والحاضر، وازدادت هذه الهجمات بصورة مكثفة في الفترة الأخيرة لتنال من الإسلام متمثلة في كتابه الكريم، وفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصورة الأخيرة تمثلت في التشكيك في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنيل منه على المستوى الشخصي وعلى مستوى المنهج الذي جاء به، ولولا حفظ الله لهذا الدين ولنبيه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان هناك كلام آخر إذا لم يعرف التاريخ البشري شخصًا له أتباع وأحباب مثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك لم يعرف التاريخ شخصًا له أعداء مثل النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأصبح الحال أعداء يهاجمون وأحباب يدافعون ويصدون ذلك العدوان، وما ذلك إلا لتأخر المسلمين عن القيام بأعباء دينهم وعدم التحرك بصورة إيجابية لدعوة الناس إليه، فينشط الأعداء ويقبع المسلمون في موقف الدفاع والمتهم دائمًا في قفص الاتهام والبحث عن تهمة لإلصاقها به، وعلى مر العصور قيض الله تعالى علماء عاملين للدفاع ضد هذه الهجمات وقد أيدهم الله تعالى بالحجج القوية والبراهين الواضحة ونصرهم الله تعالى على أعدائهم فجزاهم الله خيرًا.

وقد حاولت في هذا الكتيب المتواضع أن أقف خلف هؤلاء لعل الله يتقبله مني، وموضوع هذا الكتاب بصورة سهلة ميسرة هو الإثبات بالأدلة النقلية من القرآن الكريم أن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلقى تعاليمه من ربه تعالى ويبلغ ما أُرسل به للناس، والسبب في ذلك أثناء وجودي في دولة من دول وسط غرب إفريقيا قرأت كتيبًا صغيرًا يتهم فيه النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه بشر وأنه ادعى النبوة وأن هذا القرآن كتابه هو، وليس من عند الله، فحاولت أن أراد على ذلك وأوضح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر ولم يدع أحد غير ذلك، وأنه إذا اتخذ رأيًا دون الوحي وكان هذا الرأي لا يتناسب مع الدعوة سرعان ما ينزل الوحي ليوجه هذا الرأي إلى الوجه الصحيح، وأن القرآن الكريم وهو وحي السماء على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيبلغ أصحابه بهذا التوجيه الجديد، وكانت هذه التوجيهات تأخذ صورًا متعددة فأحيانًا تكون توجيه الرأي فقط وأحيانًا تأخذ صورة عتاب له، وأحيانًا تكون عتابًا شديدًا، ومع كل ذلك نجد النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرضى ويسلم تمام الرضا والتسليم لهذه التوجيهات الإلهية وإن كان ذلك يسبب له حرجًا بين أصحابه، والكتاب ليس الهدف منه البحث الأصولي، في التفسير أو استخراج الأحكام الفقهية أو اللغوية أو أي شيء من علوم الأصول فلهذه العلوم كتبها ورجالها الثقات.

وإنما الهدف منه كما قلنا هدف سهل يصل من خلاله المطالع له أن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يبلغ دعوة الله تعالى إلى الناس دون العناء والبحث في كتب الأصول، وقد اعتمدت فيها على الله أولًا ثم على أسباب نزول الآيات، وكما هو معلوم قد تتعدد أسباب النزول للآية الواحدة وقد يكون لكل جزء من الآية سبب نزول، وليست العبرة بخصوص السبب وإنما العبرة بعموم المعنى، وقد حاولت جاهدًا أن أنتقي أصح الروايات على تعددها وهناك بعض الروايات بها ضعف في السند، هذه الروايات ذكرتها لما وجدت أنها لا تتعارض مع نص الآية، وأنها تتفق معها وتخدم المعنى العام.

وما كان غير ذلك فقد تركته، وفي اختياري لهذه الآيات بدأت بها مرتبة حسب ترتيب القرآن الكريم في المصحف الشريف من الفاتحة إلى الناس.

ثم زيّلتُ أسباب النزول بتزييل متواضع جدًّا، موضحًا فيه بعض المفاهيم دون التعرض لشيء من العلوم السابقة، أرجو من الله تعالى أن يقبله وينفع به.

وقد اعتمدتُ في تخريج النصوص على تخريج الشيخ/ عصام بن عبد المحسن الحميدان في تخريجه وتدقيقه لكتاب أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، وذلك لوجودي في هذه الفترة في دولة سيراليون الإفريقية والفقيرة جدًّا وقلة المراجع التي أردت الرجوع إليها، فجزاه الله خيرًا، وقد بدأت الكتاب بمقدمة في عقيدة المسلم وهي حديث عن العقيدة الإسلامية بصورة سهلة، كانت هذه المقدمة محل حوار دار بيني وبين أحد الناس في دولة سيراليون، وقد حاولت في حواري معه أن أبتعد عن الأدلة النقلية وأحاول جاهدًا أن أصل مع هذا الرجل إلى نقطة التقاء عن طريق المحاورة العقلية، ولم أستخدم الأدلة النقلية إلا في حدود ضيقة والتي لا غنى عنها في مواضعها، بعدها أكرمه الله تعالى وأعلن إسلامه وأكرمني أنا أيضًا بإسلامه، ولما رأيت تأثره بها واقتناعه بها آثرت أن أذكرها لعله يستفيد منها غيره، فما كان من صواب فمن الله تعالى وحده، وما أخطأت فيه فمن نفسي ومن الشيطان وتقصيره راجع إليّ، والله بريء منه ورسوله، وأرجو المغفرة من الله تعالى.

كتبه

الشيخ/ محمد أحمد هاشم

Q̄ǫ ƨ Ǯǩƚ Ɲ y ǾǢṺ Ǽə

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد:

إن عقيدة المسلم راسخة رسوخ الجبال لا يهزها ولا ينال منها شيء مهما كان هذا الشيء، وقد يرتكب المسلم المعاصي والمخالفات ولكنه يعرف أن ذلك معصية لله تعالى سوف يحاسبه عليها، ومع ذلك تكون عقيدته ثابتة راسخة لا تتزعزع لأنها كامنة في قلبه، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

فالإيمان بالله تعالى هو رب كل شيء وهو خالق الكون كله وما يجري في كونه إنما هو بعلمه وإرادته وقدرته، ولا يجري في كونه شيء خارج عن قدرته وإرادته وكذلك هو المستحق للعبادة فلا معبود سواه ولا يستحق العبادة إلا الله تعالى، وهو مخالف للحوادث فالكون كله حادث، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وهذه العقيدة ليست خاصة بمجموعة من المسلمين دون سواها أو فئة دون أخرى، بل كل المسلمين يشترك في هذه العقيدة، الصغير والكبير، الرجل والمرأة، العالم والأُمي، الكل يؤمن بها عقيدة مجردة من كل العوالق والعوائق، فالأمي يؤمن بها في قلبه دون البحث عن أسبابها أو الطرق التي توصل إليها، وهو مستعد أن يدافع عنها بكل قوة إذا تعرضت لأي خلل من قبل الغير وهو مستعد كذلك أن يضحي من أجلها بنفسه وأن يموت في سبيلها، وليس له هدف في الحياة إلا أن يموت عليها ويعلم أن الموت عليها يسبب له السعادة في الدارين.

والمسلم العالم بها يؤمن بها أيضًا حقيقة مجردة في قلبه من كل الشوائب، وهو يستخدم علمه في إثباتها لغيره من الناس وتقويتها إذا اعتراها الخلل، وهو أيضًا يدافع عنها بكل ما أوتي من علم وما عرف من حجج، ويقف بالمرصاد لكل من حاول زعزعتها بين الناس وهو يفعل هذا من منطلق أن هذا واجب شرعي عليه سيحاسب إذا قصر في ذلك، فهو لا يقف مكتوف الأيدي إذا حدث لها خرق مستخدمًا في ذلك كل الوسائل العلمية والأدلة النقلية والعقلية التي تقوي حجته، وإذا عجز عن ذلك عرف أن العيب فيه وأن التقصير فيه وعنده وليس في هذه العقيدة، فيذهب ليقوي نفسه ويبحث عن الأدلة التي تقويه وهو يعلم علم اليقين أنه سيجد تلك الأدلة لو بحث عنها جيدًا.

وكذلك الإيمان بالأنبياء أيضًا عقيدة المسلم هنا واضحة جلية.

فالأنبياء والرسل كلهم بشر يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون أرسلهم الله تعالى للناس لكي يعودوا بهم إلى الطريق المستقيم الذي اعوج بعد الاستقامة، وأن الله تعالى خلق الناس على فطرة واحدة، خلقهم وجعل فطرتهم الميل والرجوع لله تعالى وللغرض الذي من أجله خلقهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، غير أن هذه الفطرة يعتريها الخلل من عوامل كثيرة، والتي في مقدمتها الشيطان الذي يرصد للإنسان كل طريق يسلكه وهو يلازم الإنسان في كل حياته، حركاته وسكناته بحثًا منه عن مدخل يدخل منه لينحرف بالإنسان عن هذا الطريق إلى طرق أخرى.

قال تعالى: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

[ص:٨٢-٨٣]

بهذا يكون الشيطان قد قطع على نفسه عهدًا أنه لن ينجو منه إلا الأنبياء الذين أخلصهم الله تعالى وسيجعل كل السبل متاحة ومفتوحة أمام الإنسان ليصل به في النهاية

إلى الانحراف عن طريق الله تعالى، ويستخدم الشيطان كل الوسائل المتاحة من الدنيا والهوى والنفس وشياطين الإنسان، هذه الوسائل يستخدمها جنودًا له في تحقيق هدفه الذي يسعى له، ولذا كان لابد من إرسال الرسل ليعودوا بالناس إلى الطريق الصحيح وإلى الفطرة التي فطرهم الله عليها، ولابد أن يكون الرسول بشرًا منهم من بني جلدتهم حتى يسهل التعامل معه والأخذ منه والاقتداء به فلو كان الرسول غير ذلك لوجد المعاندون للرسل فرصة كبيرة يحتجون بها أن هذه التكليفات لا نستطيعها لأننا بشر وهذا الرسول ملكًا مثلًا فهو يستطيع التكليفات ونحن لا نستطيعها.

وفي عقيدة المسلم أن هؤلاء الرسل جميعًا معصومون من المعاصي حتى لا يرميهم الجهال بها، وهم معصومون من كل نقص بشري ومن كل صفات الخسة والنذالة، وكان إرسالهم ضروريًّا لهداية الناس.

وكما قلنا إن الشيطان يستخدم كل الوسائل لتحقيق هدفه، غير أن هناك سببًا واضحًا يستغله الشيطان استغلالًا كبيرًا، ألا وهو العلم، فالعلم يستخدمه المسلم لإثبات وتقوية العقيدة السليمة إلا أنه على مر العصور كان الشيطان يستخدم العلم في التلبيس على الناس ويجعلهم ينحرفون عن طريقهم، فحينما يتعلم الإنسان علمًا ويبلغ فيه درجة يدخل معه الشيطان ويسول له أنه ملك الأرض ويستطيع أن يفعل ما يشاء إلى أن يكفر بالله تعالى إفراطًا أو تفريطًا في حق نفسه.

- وكان الناس في زمن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد برعوا في فن السحر وبلغوا فيه درجة كبيرة، وظنوا أنهم ملكوا الأرض وهم قادرون عليها، ولا يستطيع أحد أن يقف أمامهم، ووصل بهم الأمر أن ادعى فرعون أنه إله الأرض والسماء، وأنه لا معقب لحكمه ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، والأمر اختلط على الناس فهم يحتاجون إلى من ينقذهم مما هم فيه من انحراف، فأرسل الله تعالى لهم سيدنا

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعود بهم إلى فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها، وأيده بالمعجزات التي تناسب ما هم فيه ليعجزهم بها وليعرفوا أن هناك إلهًا هو الذي وهبهم ما هم فيه وعليهم أن يعودوا إليه وإلى هداهم، ولما اكتشف أرباب هذا العلم وهم السحرة آمنوا بالله تعالى، ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، دون النظر إلى المؤثرات التي تحول بينهم وبين إيمانهم بعد علمهم بالحقيقة.

- وفي زمن سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ برع الناس في الطب وقطعوا فيه شوطًا كبيرًا، وقد انحرفت فطرتهم من هذا القبيل وظنوا أنهم ملكوا الأرض كذلك، واختلط الأمر على الناس كذلك وانحرفوا عن الطريق المستقيم، فأرسل الله تعالى لهم سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعود بهم إلى ربهم تعالى، وأيده بالمعجزات التي تناسب وضعهم والتي تعجزهم وتصحح مفهومهم، وكان مولده من غير أب هو بداية الإعجاز حيث أن علمهم مهما بلغ في تلك الفترة لن يصل إلى ذلك أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦٠]، وكذلك أيده الله تعالى بالمعجزات الأخرى وهي إبراء الأكمه والأبرص وكل ذلك، وهذه كانت أمراضًا قد فشلوا في علاجها رغم تقدمهم في الطب لدرجة كبيرة.

- والمعجزات التي يؤيد الله تعالى بها أنبياءه تجري دون أسباب، فقد يهيئ الله تعالى الأسباب للإنسان فيتوصل إلى أشياء خارقة فليس هذا من قبيل المعجزات لأنه يجري بسبب ظاهر، فقد علم الله وهيأ للإنسان ذلك فقد يتوصل الطب لعلاج هذه الأمراض وأكثر من ذلك، ونحن نرى في العلم الحديث أن الطب وصل إلى إنتاج مخلوقات دون ذكر في علم الاستنساخ أو كما يطلقون عليه، وهم يحاولون ذلك في الإنسان وقد يتوصلون بهذه الأسباب، لذلك أيّد الله تعالى نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعجزة أخرى تعجز الطب إلى

يوم القيامة مهما حاول، ألا وهي معجزة إحياء الموتى بإذن الله تعالى، فهذا دليل على نبوة سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومهما حاول الطب للوصول إليها.

- وكذلك الحال مع النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد اكتمل العقل البشري في تلك الفترة وأصبح في تمام نضجه، ولكن هذا النضج قاده للانحراف عن الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وفرط الإنسان في حق نفسه ونزلها منزلة أقل منها، وعبدوا الحجارة والأصنام من دون الله تعالى، فأرسل الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعود بهم إلى ربهم تعالى، وبما أنه آخر الأنبياء فكان المنهج الذي جاء به للناس جميعًا.

- والشاهد في هذا أن عقيدة المسلم بالنسبة للأنبياء جميعًا متساوية فهم عباد الله أرسلهم لهداية الناس، والإيمان بهم واجب على حد سواء في درجة واحدة لا فرق بينهم جميعًا، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فمجرد التفريق بينهم لا يجوز، ومن فرّق بينهم من المسلمين يعد خارجًا عن الدين والمسلمين.

- والمسلم يعتقد ذلك ويؤمن بهم بشرًا لا تفريط في حقهم ولا إفراط، فالتفريط ينزلهم منزلة أقل مما جعلهم الله تعالى عليه بأن وصفهم بأوصاف لا تليق بهم أو نسب إليهم المعاصي أو ارتكاب الموبقات أو نسب إليهم ما من شأنه يحط من شأنهم أو من كرامتهم أو شتمتم أو سبهم أو أحدًا منهم يعد هذا كافرًا كفرًا صريحًا، وإن ادعى أنه مؤمن.

فلو أن مسلمًا شتم نبيًّا من الأنبياء أو نسب إليه صفات نقص بشري واعتقد هذا يعد كافرًا وخارجًا عن الإسلام، وكذلك الإفراط في حقهم بأن ينزلوا منزلة فوق منزلة البشرية هذا أيضًا لا يجوز في حقهم، بأن ينزل نبي من الأنبياء منزلة الإله أو ابن الإله

فهذا في عقيدة المسلم كفر صريح، لا يجوز للمسلم أن يدعي هذا لأي بشر أو لأي نبي من الأنبياء حتى لو ادعى ذلك للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسيكون كافرًا بالنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو مرتدًّا عن الإسلام، ويجري عليه حكم الردة، وذلك لأن عقيدة المسلم لا تقوم على التعصب الأعمى الذي لا يفرق بين الحق والباطل، وليس هذا لنبي دون غيره من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فلو أن أحد الناس فرط أو أفرط في حق نبي من الأنبياء واجب على المسلم أن يدافع عن هذا النبي؛ لأن ذلك يمس عقيدة المسلم.

- وعقيدة المسلم هنا أن جميع الأنبياء جاءوا لهدف واحد وبدعوة واحدة، هي العودة بالناس إلى ربهم وتوحيد الله تعالى ربًّا وإلهًا وهم جميعًا جاءوا لبناء بيت واحد يصلح لأن يقيم الناس فيه ويوفر لهم الحماية كل منهم قام ببناء حائط أو ركن من أركان هذا البيت، فهم جميعًا اشتركوا في بناء هذا البيت، وقد ذكر ذلك رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فحسنه وجمله إلا موضع لبنة، فكان الناظر إليه يقول: ما أجمل هذا البيت وما أحسنه لولا موضع هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء**»[(١)]، فكان دور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوقيته آخر الأنبياء وهو الذي به تم البناء وهو الذي أقام آخر ركن من أركان هذا البيت فأصبح البيت كاملًا به يصلح للبشرية أن تقيم فيه إلى يوم القيامة، وأصبح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملك مفتاح هذا البيت، وهذا دوره وترتيبه لأنه آخر الأنبياء، فلا تصلح الإقامة في غيره لأنه المكان الوحيد المكتمل الجوانب والأركان، وهو الذي يوفر الأمن والأمان لساكنه، فالذي يصر على أن يتبع نبيًّا غير النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن بلغته دعوته كالمصر على أن يقيم أو يسكن في بيت غير مكتمل الأركان وغير مكتمل البناء، أو كالذي يصر على أن يبيت في العراء دون بناء أصلًا فيكون كل منهما عرضة للانحراف وهجوم الأعداء،

(١) البخاري، ومسلم، السنن الكبرى للبيهقي (١٨١٧٥-١٧٤٩٧)، مسند البزار (٢٣٣-٨٢٣٤)، الحميدي (١٠٣٧).

وإذا أراد أن يحقق لنفسه الأمن والأمان لابد أن يكون ساهرًا ليلًا ونهارًا دون أن ينام أو يغفل ولو غفوة واحدة، وهذا بالطبع يتنافى مع الطبيعة، ولابد أن يعتريها الضعف، ومن المؤكد أنه سيخترق من الأعداء المتربصين به من حوله وهم كثير، فهو يجهد نفسه في سبيل تحقيق ذلك، ولكن لا يستطيع أبدًا لأنه ينام في العراء ويعتريه النوم والضعف فيكون فريسة سهلة للأعداء.

– وليس هذا من قبيل التعصب للإسلام أو ادعاء غير صحيح، وإنما هو واقع بين الناس يشهد به المنصفون من غير المسلمين.

– وطالما أن النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر الأنبياء وهو آخر اتصال الوحي بالأرض وهو آخر تشريع ينزل من السماء إلى الأرض للناس فمن الطبيعي جدًّا أن يكون هذا الدين والمنهج الذي جاء به صالحًا لكل زمان عاش ويعيش فيه الناس، ولكل مكان حل فيه الناس أيضًا، ومن الطبيعي جدًّا أيضًا أن تكون دعوته تحوي الدعوات السابقة وتحوي المناهج التي جاء بها الأنبياء السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لأنه ورث البناء بعد أن أقام كل منهم جزءًا منه.

– ومن الطبيعي جدًّا أيضًا أن تحتوي دعوته على المنهج الذي تدار عليه أمور الدنيا والآخرة إلى يوم القيامة؛ لأنه لا تشريع بعده ولا منهج كذلك، فلا يستطيع أحد أن ينكر هذا إلا إذا كان جاهلًا أو معاندًا أو مغالطًا لنفسه، فبعد استقرار الحياة واكتمال العقل البشري أرسل الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمنهج المتكامل المستقر الذي يقود البشرية إلى ربها تعالى إلى نهاية الدنيا وما على البشرية إلا أن تتعاطى مع هذا المنهج وهذه التعليمات وتمارس مهامها وتكليفاتها من خلال المنهج الذي كلفها به رب العالمين في هذا التشريع الخاتم.

– وإنكار رسالة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا لم يكن جحودًا فهو نوع من الجنون أو الخبل إذ من الثابت في الكتب السماوية السابقة البشارة به وأنه آخر الأنبياء وأنه نبي آخر الزمان، ومعلوم أن أزمنة الأنبياء متقاربة حيث أنه كان يوجد في الزمن الواحد نبي أو اثنان في وقت واحد، وأن أطول مدة زمنية بين الأنبياء هي المدة بين سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الآن وقد مرت آلاف السنين بعد سيدنا عيسى فأين ذلك النبي المنتظر إن لم يكن هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقصود بالبشارة السابقة، فإن قال قائل: إن آخر الأنبياء هو سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فليست هناك إشارة من قريب أو بعيد في الإنجيل أو التوراة أن سيدنا عيسى هو آخر الأنبياء، ولم يدع هذا سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أي وقت من الأوقات ولا يستطيع أحد أن يدعي ذلك، بل من الثابت أن سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر بني إسرائيل وبشرهم ببعثة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦]، ودعوة المسلم لغيره من الناس للإسلام تأتي لعدة أسباب: الأول: هو الشعور بأن هذا واجب شرعي وتكليف إسلامي له من الله تعالى بدعوة الآخرين إلى الله، وليست المسألة اختيارية بالنسبة له أن يقوم بها أو يتركها وإنما هذا تكليف، إذا تكاسل عنه أو تخاذل فسيكون عليه عقاب شديد من الله تعالى، فهو لا يريد أن يقع تحت طائلة المقصرين وليس هذا فحسب بل عليه إصلاح نفسه وإصلاح المجتمع الإسلامي حوله ودعوة الناس إلى الإسلام ومن لم يقم بذلك يكون مقصرًا في حق إسلامه ولم يقم بالتكليف الشرعي له، هذا شعور المسلم تجاه إسلامه.

السبب الثاني: هو تحقيق الفائدة له وللمدعو، فالفائدة للداعي اكتساب الأجر والقيام بالواجبات الشرعية المكلف بها، وبالنسبة للمدعو تحقيق الأمن والأمان له

بدخوله في المنطقة الآمنة التي يأمن الإنسان فيها على نفسه ودينه وماله وعرضه، وعلى كل شيء يخشى الإنسان عليه، فليست الدعوة من قبيل التعصب وإكثار للعدد أو للتجهيز للاعتداء على الغير أو لغرض من أغراض الدنيا، والمسلم لا يطلب أجرًا في الدنيا لهذه الدعوة فهو يكون أشد فرحًا بمن يهتدي على يديه من الدنيا كلها.

وفي عقيدة المسلم أن الأنبياء معصومون من المعاصي ومن كل صفات النقص البشري لكن الأخطاء البشرية والتي ليست معاصي هذه واردة في حقهم وليس في هذا عيب، بل ذلك من تمام البشرية إذ لو لم يجر عليهم ذلك لانتقلوا من البشرية إلى جنس آخر، وأيضًا يدل ذلك على أنه لولا حفظ الله تعالى لهم لتمادوا في الأخطاء، فهذا ليس نقصًا وليست هذه صفات نقص، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) مسند الصحابة في الكتب التسعة (٣٧٩)، سنن ابن ماجه (٤٢٥١)، الدارمي (٢٧٢٧)، البيهقي (٧١٢٧)، كنزل العمال (١٠٢٢٠)، أبي يعلى (٢٩٢٢)، البزار (٧٢٣٦)، المستدرك على الصحيحين (٧٦١٧)، عبد بن حميد (١١٩٧)، الدارمي (١٥٦٠٨)، بلوغ المرام (١٤٧٧)، جامع الأصول (٩٨٨)، جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢٦)، جامع الجوامع والجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٥٨١١).

ğp à ł ĠØΣŃqǩł

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

۞ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كانت المرأة من نساء الأنصار مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهودّه، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فنزلت: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[(١)].

۞ أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف لإن عاش لها ولد لتهودنه فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم أناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله، أبناؤنا، فنزلت الآية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، قال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم ومن شاء دخل الإسلام.

۞ وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يكنى أبا الحصين كان له غلام أسود يقال له: صبيح وكان يكرهه على الإسلام.

۞ وقال السدي: نزلت في رجل من الأنصار يكنى أبا الحصين وكان له ابنان، فقدم تجار الشام إلى المدينة يحملون الزيت فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهما ابنا أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا وخرجا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**اطلبهما**» فأنزل الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ١٣٢ – ح١٦٨٢)، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي والضيا المقدسي (فتح القدير ١/ ٢٧٥)، من طريق سعيد بن جبير.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبعدهما الله هما أول من كفر**»، قال: وكان هذا قبل أن يؤمر رسول الله بقتال أهل الكتاب في سورة التوبة[١].

۞ وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل أن يبعث الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الطعام فأتاهما أبوهما فلزمهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسول الله، أيدخل بعض النار وأنا أنظر، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فخلى سبيلهما.

۞ أخبرنا أبو إسحاق عن مجاهد قال: كان ناس مسترضعين في بني قريظة والنضير فلما أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخلاء بني النضير قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبن معهم ولندينن بدينهم، فمنعهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام، فنزلت: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾.

۞ استقر المقام بالدولة الإسلامية في المدينة المنورة وظهرت معالمها بعد طول عناء من الكفار والمشركين في مكة لكن هذا الاستقرار لم يخلُ من الكيد والمكر الذي لاقته الدولة الوليدة من أهل الكتاب والمنافقين في مقرها الجديد، وفي الواقع لازالت الدولة الإسلامية تعاني من ذلك حتى الآن، لكنها في المدينة المنورة أصبحت لها قوة تحميها وتدافع عنها، ولابد لمن ظلم وعانى الكثير والكثير أن تكون له كلمة وأن يحاول أن يثبت مكانه ويثبت قوته.

والروايات السابقة التي أوردناها جميعًا في سبب نزول هذه الآية تشترك في قاسم واحد: ألا وهو أن الإسلام لا يكره أحدًا على الدخول فيه، والله تعالى غني عن إكراه

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ١٠)، من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يكنى: أبا الحصين وبهذا يثبت أصل الرواية ويكون للآية سبب نزول.

الناس على الإسلام؛ لأن ذلك لا يحقق الاستقرار النفسي والرضا عن الله تعالى لمن دخل بهذه الطريقة، وكان النبي ﷺ كما ذكر السدي في روايته أن يطلب أبو الحصين أولاده بعد أن تنصرا سواء كان ذلك بعد بعثة النبي ﷺ أو كان ذلك قبل البعثة كما ذكر مسروق في روايته، ونحن نرجح الرواية التي تقول إنهما تنصرا قبل البعثة، أن يطلبهما ولو على سبيل الإكراه، فينزل الوحي بالقرآن من السماء على النبي ﷺ ليوجه رأيه إلى وجهة أخرى غير التي رآها النبي ﷺ، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ الآية.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل أسلم حين قال له: إني أجدني كارهًا قال ﷺ: «**وإن كنت كارهًا**»، ليس الإكراه هنا مع هذا الرجل إكراه على الدخول في الإسلام، وإنما الرجل أسلم بمحض إرادته ولكنه لم يجد في قلبه انسجامًا مع الإسلام أو أنه لم يتذوق حلاوته فهو يشعر بمرض في قلبه ولذلك يشكو للنبي ﷺ ذلك أنني لم أجد في قلبي الإخلاص الذي أريده، ولذلك أشار عليه النبي ﷺ: وإن كنت كارهًا، أي: وإن كنت لم تجد الإخلاص الذي تريده في بادئ الأمر، وإنما عليك أن تثبت عليه وسوف يرزقك الله تعالى الإخلاص الذي تريده، وربما يكون ذلك بلاء من الله تعالى في بادئ الأمر[1]، لكن الآية تتحدث عن إكراه الناس على الدخول في الإسلام، وقد رأى النبي ﷺ ذلك لمصلحة الولدين الذين تنصرا لكن هذا لا يتفق مع أهداف الإسلام الكبرى التي تقوم على الرضا التام والاقتناع المطلق للدخول فيه، لذا نجد القرآن الكريم ينزل ليوجه النبي ﷺ إلى الطريقة السليمة في دعوة الناس.

❁ ❁ ❁

(١) ابن كثير (٢/ ٣٥٤).

ǼDZKRǩŁ ǴǾΣ ǸɑǩŁ

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

۞ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تصدقوا إلا على أهل دينكم**»، وكان المسلمون يكرهون أن يتصدقوا على الفقراء المشركين حتى نزلت هذه الآية فأمروا بالتصدق عليهم(١).

۞ وقال الكلبي: ولها وجه آخر، وذلك أن ناسًا من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار ورضاعة في اليهود، وكانوا ينفعونهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوهم على الإسلام فاستأمروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت هذه الآية فأعطوهم بعد نزولها.

۞ أمر طبيعي جدًّا أن يميل الإنسان للأقرب سواء كان هذا القرب في الدين أو في النسب أو في الجوار أو في الرأي أو المناصر له في الفكرة أو في المبدأ، ومن الطبيعي أن تمتد يدك إلى هذا الأقرب، وليس في هذا عيب، بل ربما يتعايش الناس بهذا المبدأ في كل حياتهم، وكذلك حجب العطاء عن البعيد عنك أو المناهض لك أو من ظهرت منه العداوة والبغضاء لك، هذا أيضًا أمر طبيعي ولا يعاب على ذلك الشخص الذي فعل ذلك، ونحن نرى الهيئات والحكومات أو الدول تمنع عطاياها عن آخرين بسبب هذا الخلاف أو هذا البعد، لكن الإسلام الحنيف الذي يسع الناس جميعًا لا ينظر هذه النظرة

---

(١) مرسل جيد الإسناد وقد وصله ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير) والضياء في المختارة، (فتح القدير ١/ ٢٩٣)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بل ينظر إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، والروايات السابقة في سبب نزول هذه الآية توضح هذا المبدأ، فقد أشار النبي ﷺ على أصحابه أنه لا تصل عطاياكم إلا لأهل دينكم وتحجب عن غيرهم ليكون ذلك حافزًا لهم للدخول في الإسلام مهما كان هذا الغير مشركًا كان أو من أهل الكتاب، أو أن ذلك الفعل كان من فعل الصحابة لما ذكر في رواية الكلبي أن ناسًا من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار ورضاعة في اليهود وينفعونهم قبل الإسلام فلما جاء الإسلام منعوا تلك العطايا عنهم ليدخلوا في الإسلام، المهم أن المنع هذا كان الهدف منه حمل هؤلاء على الإسلام.

فينزل القرآن الكريم ليوجه النبي ﷺ وأصحابه بغير ما رأوا وبغير ما رأى النبي ﷺ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي أنه ليست هذه الطريقة التي سلكتها هي الطريقة السليمة لدخول الناس في الإسلام، ولا يجوز حجب العطاء عن الفقراء أو حجب الصدقة عنهم لإرغامهم على الدخول في الإسلام، وبعد نزول هذه الآية أمرهم النبي ﷺ بالتصدق على الناس جميعًا، وقد امتثل الصحابة لأمر النبي ﷺ وتصدقوا عليهم، والإسلام في هذا ينظر إلى الطبيعة البشرية وإلى النفس مهما كان صاحبها ويتعامل معها من هذا المنطق، الفقير الذي يحتاج إلى الطعام لابد للغني أن يوفر له الطعام دون النظر إلى هذا الفقير مؤمنًا كان أو كافرًا، وفي الواقع هذا يتفق تمامًا مع صاحب هذا الدين مع الله تعالى وكيف يتصرف في خلقه.

إن الله تعالى يرزق الناس جميعًا المؤمن والكافر رغم أن الكافر لا يعبده ولا يدين له بدين، ورغم أن المؤمن تصدر منه معاصي لله تعالى، ورغم ذلك لا يمنع الله تعالى عنهم رزقهم، لذلك جاء الوحي ليؤكد هذا المبدأ القويم، الدين مع صاحبه، وليعرف الناس

أن الله تعالى هو الذي أغنى فلانًا وأفقر فلانًا فعلى الناس أن يلتزموا بأوامر الله تعالى في خلقه، ولا يجوز حجب العطاء حتى ولو كان لحمل الناس على الإسلام، هذا التوجيه الرفيع العالي لا يكون إلا من رب العزة تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الذين يناط بهم حمل هذه الرسالة لتوجيهها إلى الناس كافة.

PǩƦƦǩƗ ǴØΣ ŇqǩƗ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

[آل عمران: ٧٩-٨٠]

❂ قال الضحاك ومقاتل: نزلت في نصارى نجران عبدوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❂ وقال الكلبي وعطاء: قال ابن عباس: إن أبا رافع اليهودي والرئيس من نصارى نجران قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربًّا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**معاذ الله أن يعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني**»، فنزلت الآية: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية(١).

❂ وقال الحسن: بلغني أن رجلًا قال: يا رسول الله، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله تعالى، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله**».

❂ أن المدعي لدعوة ليست حقيقية لابد أنه يريد من ورائها تحقيق مصلحة شخصية له، وهو لا يتوانى في قبول أي رأي أو مشورة تحقق له تلك المصلحة، وهي إما تحقيق مكسب مادي أو معنوي مثل التعظيم في عيون الناس أو طلب الجاه أو السلطان، والأغراض في ذلك كثيرة والمهم أنه يحرص لإرضاء الناس أولًا وأخيرًا؛ لأنه عن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٣٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم فتح القدير (١/ ٣٥٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٨٤)، من طريق ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس، وإسناده حسن.

طريقهم يتم تحقيق تلك المصلحة، لكن دعوى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست كذلك إنما هو رسول الله تعالى يبلغ دعوة الله تعالى إلى عباده.

ولو كان النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير ذلك لقبل عرضًا من العروض الكثيرة التي عرضت عليه بدءًا من عروض قريش عليه أن يكون أغناهم أو ملكًا عليهم أو صاحب الرأي والمشورة فيهم فلا يقطعون أمرًا دونه، أو كان قبل عرضًا جديدًا من أهل الكتاب الذين جاءوا به ليعظموه لدرجة أنهم يقدسوه ويرفعوه فوق مرتبة البشر وأن يعبدوه، وسواء كان هذا العرض على سبيل الحقيقة أو على سبيل الامتحان له المهم أن هذه العروض عرضت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هناك عرض آخر جاء من أتباعه كما تقول رواية الحسن أن رجلًا قال: يا رسول الله أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ كل هذه العروض التي اشتملت على الملك والغنى والجاه والسلطان وعلى التقديس من أعدائه ومن أتباعه وكان رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم في كل هذه العروض النفي القاطع لأنه لم يدع هذا الأمر ولم يطلبه لنفسه، إنما هو رسول من رب العالمين ليبلغ رسالة الله تعالى إلى الناس جميعًا، وهو لا يطلب تعظيمه ولا تقديسه إنما يطلب أن يكون التعظيم لله رب العالمين، وكذلك التقديس والسجود، ولهذا كان رده على أهل الكتاب: «**معاذ الله أن يعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله**» ردًّا قاطعًا قويًّا وسريعًا بالنفي القاطع لعبادة غير الله تعالى مهما كان هذا الغير، وكذلك كان رده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أحد أتباعه: «**لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد دون الله تعالى، وعليكم أن تعرفوا حق نبيكم**» في حدود النبوة والبشرية دون أن تتعدى إلى أبعد من ذلك، وينزل الوحي بالقرآن مؤيدًا وموجهًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الرأي، ولكن ليؤكد لهؤلاء أن هذه المسألة لا يدعيها أي رسول مرسل من قِبَل الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ الآية.

ŭΛŁƐǩŁ ĠØΣ ÑqǩŁ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

[آل عمران:١٢٨]

۞ روى البخاري عن سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**»، بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية.

۞ وكذلك رواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك وكلاهما عن معمر.

۞ وقال الإمام أحمد عن سالم عن أبيه: سمعت رسول الله يقول: «**اللهم العن فلانًا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمر، اللهم العن صفوان بن أمية**»، فنزلت هذه الآية، فأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم.

۞ وروى البخاري أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، (وربما قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعباس بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)، يجهر بذلك وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» لأحياء من أحياء العرب، حتى نزلت هذه الآية.

۞ وقال البخاري عن أنس بن مالك: شج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُد وكسرت رباعيته فقال: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**» فنزلت الآية.

۞ وذكر الإمام أحمد عن أنس أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسرت رباعيته يوم أُحُد وشُجّ في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم**

وهو يدعوهم إلى ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى» فنزلت الآية: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾.

۞ في وقت الشدة والعداوة لابد للنفس البشرية أن تغضب وأن تحاول التنفيس عنها، والموقف في غاية الشدة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه في غزوة أُحُد، حيث مجيئ قريش إلى المدينة واعتدائها على المسلمين وقتلهم والتمثيل بجثثهم وكسر رباعية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشج وجهه الشريف وإسالة الدم عليه وفرار كثير من الصحابة واختلال الصف المسلم اختلالًا كبيرًا، كل هذه الأمور لابد للغضب أن يتسرب إلى النفس البشرية وأن يأخذ منها جانبًا، وفي الواقع ليس في هذا عيب ولا يعاب على صاحب هذا التصرف، بل ربما يعاب على من لم يفعل ذلك في مثل هذه المواقف ويتهم بالجبن وبلادة الحس وعدم الشعور، وقد يكون رد الفعل أكثر من الغضب ويذهب من يتعرض لهذا إلى أبعد من الغضب بكثير انتقامًا وردًّا على ما أصابه من أعدائه بقدر ما يملك من قوة أو سلاح.

والروايات السابقة للبخاري والنسائي والإمام أحمد تؤكد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرض لموقف غضب شديد في هذه الغزوة ولم يكن غضبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه ولما أصابه شخصيًّا، وإنما كان لأن هؤلاء بلغ بهم العناد والكفر ليس فقط لإعراضهم عن الإسلام وإنما لصد الناس عن الإسلام، بل ومحاولة قتل الإسلام المتمثل في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم قد ذهبوا مذهبًا بعيدًا في محاربة الإسلام فكان غضبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك، ولذا اتجه يدعو على أفراد منهم أو قبائل بعينها وهو يقول: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم**»، هذا تصرف طبيعي في مثل هذا الموقف.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير ما رأى ليوجه رأيه إلى غير ذلك بقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ أي:

أمر الدعوة وأمر هؤلاء وما هم فيه من الكفر ليس لك يا محمد، وليس لك أن تحكم على عبادي وليس لك إلا ما أمرتك به فيهم أن تدعوهم إلى الله، أما أفعالهم فأنا الذي أحاسبهم عليها إما أن أتوب عليهم بهدايتهم للإسلام أو أتوب عليهم رغم ما هم فيه من الكفر، وإما أن أعذبهم في الدنيا والآخرة أو في الدنيا فقط أو في الآخرة فقط، كل هذا ليس مصيره إليك، وقد امتثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يذكر عنه أنه دعا على أحد بعد ذلك لهذا التوجيه، وقد وجدنا في رواية الإمام أحمد أن الذين دعا عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلموا بعد ذلك وحسن إسلامهم.

❁ ❁ ❁

5 ōĸUǩł ĠǾΣ Ǹqǩł

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

۞ قال مقاتل: نزلت في سعد بن الربيع وكان من النقباء وامرأته حبيبة بنت زيد بن زهير وهما من الأنصار وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال أبوها: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القصاص**»، لتقتص من زوجها وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارجعوا هذا جبريل قد أتاني**» وأنزل الله تعالى الآية، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أردنا أمرًا وأراد الله تعالى أمرًا، والذي أراده الله تعالى خير**» ورفع القصاص من الزوج(١).

۞ أخبرنا سعيد بن محمد بن أحمد الزاهد عن الحسن أن رجلًا لطم امرأته فخاصمته إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء معها أهلها فقالوا: يا رسول الله، إن فلانًا لطم صاحبتنا فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**القصاص القصاص**»، ولا يقضي قضاء، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أردنا أمرًا وأراد الله غيره**».

۞ أخبرنا أبو بكر الحارثي عن الحسن قال: لما نزلت آية القصاص بين المسلمين لطم رجل امرأته فانطلقت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: إن زوجي لطمني فالقصاص، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القصاص**»، فبينما هو كذلك، نزلت الآية، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أردنا أمرًا فأبى الله تعالى إلا غيره، خذ أيها الرجل بيد امرأتك**».

---

(١) مرسل وإسناده إلى سعيد صحيح.

۞ لما نزلت آية القصاص كان لابد أن يطبق على الناس جميعًا، الغني والفقير، وعلى الأمير وأفراد الرعية، وهكذا الحال منذ نزول القصاص، لكن العلاقة الزوجية لها ميزان خاص وقانون آخر يحكمها، ولا يصلح كل ما يطبق على جميع الأفراد أن يطبق على العلاقة الزوجية؛ وذلك لأنها تقوم على المودة والرحمة ولا تقوم على المشاركة الجافة البعيدة عن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية التي تجمع الزوجين، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]، وقال أيضًا: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل:٧٢].

وقد حدثت مشكلة بين رجل وامرأته على أثرها لطم الرجل زوجته سواء كان هذا سعد بن الربيع أو غيره، كما ذكر في الروايات السابقة، وعلى ذلك اشتكت المرأة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقانون السماوي الموجود في ذلك الوقت هو القصاص، وعلى هذا كان رأي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: القصاص، وليس هذا اجتهاد من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنما هو يطبق ما أمر به ولكن الوحي ينزل بالقرآن الكريم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقانون جديد ليوجه رأيه إلى رأي آخر، ينزل الوحي بقانون جديد يحكم العلاقة الزوجية في قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ الآية، هذا القانون ينزل بالتفصيل لفصل النزاع الذي يحدث بين الزوجين، وذلك لما لهذه العلاقة من خصوصية كبيرة في الإسلام فهو قانون تقويم لا قانون اعتداء، فتصدر الآية بأن الرجال قوامون على النساء، فمن حقهم تقويم النساء لأنهم مسؤولون عنهن، وبين أن من وسائل التقويم الموعظة والهجر في المضاجع والضرب الذي هو للتقويم وليس للاعتداء، ولذلك له شروط خاصة لا يحدث جرحًا ولا كسرًا ولا تضرب الوجه، وإذا تعدى الضرب شروطه الموجوده في الإسلام يكون

قد انتقل من التأديب إلى الاعتداء وفي هذه الحالة يطبق عليه قانون القصاص لأنه في هذه الحالة تعدى التقويم وتعدى العلاقة الزوجية، ونجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمتثل لهذا التوجيه القرآني وينادي على الرجل وامرأته: «**أردنا أمرًا وأراد الله غيره، وما أراده الله خير أيها الرجل خذ بيد زوجتك**»، ويرفع القصاص من العلاقة الزوجية.

Ƶ YƘ ƨ ǩŁ ǴǾ Σ ǸɋǩŁ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ [النساء:٥٨].

۞ نزلت في عثمان بن طلحة من بني عبد الدار، كان سادن الكعبة فلما دخل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكة يوم الفتح أغلق عثمان الباب وصعد السطح، فلما طلب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المفتاح فقيل: إنه مع عثمان فطلبه منه فأبى وقال: لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له السقاية والسدانة[(١)]، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ الآية، فأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليًّا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر له، وفعل ذلك، فقال عثمان: يا علي أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك وقرأ الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأسلم عثمان.

۞ وأخبرنا أبو نصر المهرجاني عن شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال: دفع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المفتاح إليّ وإلى عثمان بن أبي طلحة وقال: «**خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم**» فهي فيهم إلى اليوم[(٢)].

۞ وذكر ابن كثير في تفسيره من رواية ابن مردوية من طريق الكلبي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: لما فتح رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مكة دعا عثمان بن طلحة فلما أتاه قال

(١) النيسابوري أسباب النزول (٥٧-٥٨).
(٢) المرجع السابق.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرني المفتاح**» فأتاه به فلما بسط يده إليه به قام إليه العباس فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، اجمعه لي مع السقاية فكف عثمان يده فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرني المفتاح**»، فبسط يده ليعطيه فقال العباس مثل كلمته الأولى، فكف عثمان يده فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتني المفتاح**» فقال: هاك بأمانة الله، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفتح الباب فوجد في الكعبة تمثال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه قداح يستقسم بها، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن إبراهيمُ القداح**» ثم دعا بجفنة فيها ماء فأخذ ماء فغمسه فيها ثم غمس به تلك التماثيل وأخرج مقام إبراهيم وكان في الكعبة فألزقه في حائط الكعبة ثم قال: «**أيها الناس هذه القبلة**»، ثم قام فطاف بالبيت شوطًا أو شوطين ثم نزل عليه الوحي من السماء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الآية، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان بن طلحة ورد إليه المفتاح[(١)].

۞ سواء أسلم عثمان بن طلحة قبل الفتح في الهدنة كما ذكر ابن كثير أو أسلم في هذا الموقف كما ذكر النيسابوري في أسباب النزول، الشاهد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ منه المفتاح وفي نفس الوقت طلب العباس بن عبد المطلب عم النبي المفتاح من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولاشك أنه شرف كبير يريد أن يحظى به العباس بجانب شرف السقاية والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتخذ رأيًا في ذلك، فينزل الوحي بالقرآن ليوجه رأي النبي إلى الوجهة الصحيحة وأن يجعل المفتاح في مكانه مع عثمان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾، وينزل القرآن الكريم بالأمر الصادر من الله تعالى ويجعل وجود المفتاح

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧٨-٥٧٩).

مع عثمان بن طلحة أمانة لابد أن ترد إلى أصحابها، فينادي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عثمان ويسلمه المفتاح ولم يلتفت لطلب عمه العباس في ذلك وليس هذا فقط بل ويجعل المفتاح في عثمان وبنيه إلى يومنا هذا حتى يقطع الطريق على أي شخص يفكر مثل ما فكر العباس ابن عبد المطلب.

ŭƛƙ ʂ ǩł ǴǾ Σ Ǹqǩł

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا
تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ
ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا
﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ
ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ
ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا
يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٥-١١٣].

۞ أنزلت كلها في قصة واحدة وذلك أن رجلًا من الأنصار يقال له: طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعًا من جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين، فلما التمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم والله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلى طعمة بن أبيرق وشهد له ناس من اليهود على ذلك، فقال: بنوا ظفر قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فكلموه في ذلك، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا:

إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح، وبرئ اليهودي، فهم رسول الله ﷺ وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات[١].

۞ وذكر ابن كثير في تفسيره: روى ابن إسحاق القصة مطولة وخلاصتها أن رجلًا يقال له: بشير بن أبيرق وكان منافقًا قد سرق درعًا من رجل يقال له: رفاعة بن زيد، وقد سرق مع الدرع طعامًا فلما سأل عنه في الدار قيل له: إن بني أبيرق قد أوقدوا نارًا ونظن الدرع فيهم، فلما سألوهم قالوا لهم: إن الذي سرقه رجل يقال له: لبيد بن سهل، وكان الرجل له صلاح وإسلام، فأبى الرجل وسلّ سلاحه على بني أبيرق فذهبوا إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: إن رفاعة بن زيد وابن أخيه قتادة بن النعمان قد عمدا إلى أهل بيت يرمونهم بالسرقة دون بينة، فمنعهم رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

۞ بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة عقد مع اليهود عقودًا لا يعتدي فيها أحد على الآخر، وأن يتعايشوا في سلام، لكن اليهود نقضوا تلك العهود جميعًا وتحالفوا مع الكفار في مكة ومع المنافقين في المدينة بكل صورة من الصور، بهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، وكانوا مصدر إزعاج وإثارة الفتن والقلاقل والشبهات للنبي ﷺ والمسلمين، وعلى الجانب الآخر كان الأنصار مصدر الأمن والأمان لرسول الله ﷺ وللمسلمين، فهم الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ ودافعوا عنه ومنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، وكذلك استقبلوا المهاجرين من المسلمين وفتحوا لهم أبوابهم على مصرعيها وأغدقوا عليهم أموالهم، وبالأنصار وفي الأنصار تأسست الدولة الإسلامية، وأصبحت تؤدي دورها في الحياة وتمارس مهامها إلى الله

(١) أخرج القصة بطولها الترمذي ح(٣٠٣٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٩: ١٢) ح(١٥)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ (فتح القدير ١/ ٥١١)، وابن جرير (٥/ ١٧٠).

تعالى، فالأنصار بحق لهم القدم السابقة في الإسلام، والمسلمون يذكرون لهم هذا السبق وهذا الفضل إلى يومنا هذا.

وقد حدثت جريمة ولابد من إنزال العقوبة بالجاني، والمتهم في هذه الجريمة رجلان، الأول رجل من اليهود الذين يكيلون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمسلمين من الكيد والمكر الكثير والكثير، والثاني: رجل من الأنصار، الذين نعرف فضلهم جميعًا خاصة في ذلك الوقت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وفي نفس الوقت جاء قوم الأنصاري يكلمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدافع عن صاحبهم، وقد تجمعت كل القرائن والأدلة ضد اليهودي وهي قرائن تؤخذ في الاعتبار ولا يمكن لأحد إلا أن يحكم في هذه القضية بناء على ما توفر لديه من أدلة تدين الطرف الذي تجمعت ضده هذه الأدلة، وبصرف النظر عمن تجمعت ضده هذه الأدلة أو من يدان في ذلك، وصحيح أن أدلة الإدانة تجمعت ضد رجل من الأعداء وهذا يوافق ما في النفس ويتفق مع هواها، وهي في نفس الوقت تبرئ الرجل الصديق الذي هو من قوم لهم سابق جميل على المسلمين، فالحكم لن يكون جائرًا عليه ولا متسلطًا وإنما جاء في إطارها الشرعي ومبني على الأدلة الواضحة، وصحيح أنه وافق هوى النفس وأبرأ شيئًا من سقمها إلا أنه ليس ظالمًا في حق هذا الجاني، ولا يمكن لأي شخص يحكم في هذه القضية إلا أن يدين اليهودي.

وهذا ما همّ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يفعله، لكن الإسلام الذي قام على الحق المطلق وعلى العدل المطلق أيضًا ليس فقط بين المسلمين بل بين المسلمين وغيرهم ممن يشاركوهم العيش في مكان واحد تنفذ فيه أحكام الإسلام، لا يرضى لهذه الأحكام أن تنفذ إلا على الأساس الذي قامت عليه مهما كان الأمر، العدل بين الناس جميعًا دون النظر إلى المجاملات أو العواطف الخادعة أو أي مؤثر تحول دون تنفيذ الحكم.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتوجيه العدل والحق نزلت تسع آيات في سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ الآيات، وتبرئ الآيات ساحة اليهودي وتدين ساحة المسلم الأنصاري الذي ارتكب الجريمة، ويقام عليه الحد، تحمل في طياتها عتابًا للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتحذيرًا شديدًا للأنصاري ومن على شاكلته.

لا يمكن لأي شخص منصف تمام الإنصاف أو حتى جزءًا من الإنصاف إلا أن ينبهر أمام هذه الآيات، وإلا أن يعترف أن هذا الدين ما هو إلا الرسالة الحقة التي تسع الناس جميعًا ولرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا أنه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ǰ ǬǨRǩƗ ǴØ Σ ǸɑǩƗ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

۞ روى أسباط عن السدي قال: نزلت في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختصم إليه غني وفقير وكان ضلعه مع الفقير، رأى أن الفقير لا يظلم الغني فأبى الله تعالى إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية[1].

۞ النفس بطبيعتها تميل إلى الجانب الضعيف، وهذه فطرة في النفس لأن الضعيف لا يقوى على ظلم الغني، وليس لديه من الوسائل التي تمكنه من ظلم القوي، ولا ما يريد تنفيذه، خاصة إذا كان الضعف من ناحية الفقر، فالفقير يسلب حقه في غالب الظن ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا عن حقه، أما الغني فهو يملك من الوسائل المادية ما يعينه على تنفيذ ما يريد، فهو يملك المال الذي تهفو إليه النفوس ويتجمع الناس حوله، فهم يقدمون له الخدمات طلبًا للأموال التي تعينهم في دنياهم وقضاء حوائجهم، وهم كذلك يقفون في صفه لهذا السبب، وقد يشتري الغني الناس بماله لظلم الآخرين أو لقضاء مصلحة له دون وجه حق، لكل هذه الأسباب تميل النفس مع الفقير إذا حدث خصام أو نزاع بينه وبين الغني.

وهذا ما رءاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أورد السدي في روايته أنه اختصم إليه غني وفقير فكان هواه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الفقير، رأى أن الفقير لا يقوى على ظلم الغني، لكن

---

(١) النيسابوري، أسباب النزول (١٨٦).

الإسلام الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ لا يقيم قضاءه على هذه النظرية، ويخبرنا أن إجراء الأحكام وتوقيع العقوبات لا تكون على هوى النفس أو على ما تميل إليه أو على العواطف الإنسانية دون النظر إلى الأدلة المادية، لأنه قد يستغل الجانب الضعيف ضعفه هذا في إحداث نكايات في الجانب القوي أو يستغل هذا الضعف لميل قلوب الناس إليه دون وجه حق، وكثيرًا ما أحدث الضعفاء في الأقويات نكايات وأخذوا حقوقًا ليست من حقهم عن طريق هذا الضعف أو توقيع عقوبة على الأقوياء ولم تكتشف هذه النكايات إلا بعد تنفيذ العقوبة في الأقوياء، فكان الندم والحسرة، ولذا ينزل القرآن الكريم على النبي ﷺ ليوجه رأيه ويوجه هواه وعاطفته وشعوره إلى الوجهة السليمة قبل الفصل في القضية، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

مهما يكن المتنازعان غنيًّا أو فقيرًا فلابد أن يفصل بينهما على أساس واحد وعلى أن تأخذ العدالة مجراها بناء على ما فرضه الله تعالى في كتابه: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ وقائم على الأدلة المادية الملموسة، وهذا التوجيه ليس خاصًّا بالفصل بين متنازعين فقط، وإنما يكون حتى وإن كان أحد المتنازعين هو الذي يحكم فيها، أي: وإن كنت تفصل في قضية أنت أحد المتنازعين فيها، أو أحد أطرافها والداك أو أحدهما أو أحد الأقرباء لك لابد أن تقيم حكمك على الحق والعدل وبناء على أوامر الله تعالى، بعيدًا عن المؤثرات التي تؤثر في الأحكام من الضعف والقرابة والنفس التي يستعملها الشيطان في التأثير على الأحكام والفصل في القضايا، ليكون هذا التوجيه منهج الإسلام الواضح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ǔƽƙƣǩƗ ǴǾΣ Ǹƣǩƚ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

[الأنعام:٥٢]

۞ عن سعد نزلت هذه الآية فينا ستة: فيّ، وابن مسعود، وصهيب، وعمار، والمقداد، وبلال، قالت قريش لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنا لا نرضى أن نكون أتباعًا لهؤلاء فاطردهم عنك فدخل قلب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما شاء الله تعالى أن يدخل، فأنزل الله تعالى الآية(١).

۞ عن خباب بن الأرت قال: فينا نزلت، كنا ضعفاء عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بالغداة والعشي، فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار، وما ينفعنا والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومك وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك، قال: نعم، قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتابًا، فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآية(٢).

۞ عن الربيع قال: كان رجال يسبقون إلى مجلس رسول الله ومنهم بلال وعمار وصهيب وسلمان، فيجيئ أشراف قومه وسادتهم وقد أخذ هؤلاء المجلس فيجلسون إليه فقالوا: صهيب رومي وسلمان فارسي وبلال حبشي يجلسون عنده ونحن نجيئ ونجلس ناحية، وذكروا ذلك لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقالوا: إنا سادة قومك وأشرافهم فلو أدنيتنا إذا جئناك، فهم رسول الله أن يفعل فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) أخرجه مسلم، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وابن جرير، والفريابي، وعبد بن حميد، والمنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي.

(٢) أخرجه ابن جرير، البيهقي من طريق السدي.

رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

۞ وقال عكرمة: جاء عتبة وشيبة ابنا ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك محمدًا يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعسفاءنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقًا له، فأتى أبو طالب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعتذر من مقالته.

۞ الداعي إلى الله تعالى يستخدم كل الوسائل المباحة والمتاحة التي تمكنه من تبليغ دعوته إلى من يدعوهم وليس هناك انتشار لدعوة من الدعوات دون أن تستخدم كل الوسائل التي بين يديها، وإلا ستموت الدعوة ولن تصل إلى أحد، وقد بذل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سبيل تبليغ دعوته الكثير والكثير مع أهل مكة حتى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك مكة وذهب إلى الطائف حين أغلقت مكة أبوابها في وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك قلوبها، بحثًا عن أرض جديدة ووجوه جديدة أيضًا، ولكن الحال لم يختلف عنه في مكة، ولابد للداعي أن يفعل ذلك وإلا سيكون مقصرًا في دعوته أو متكاسلًا عنها، فالبحث عن أرض جديدة أو فكرة جيدة أو أناس آخرين لممارسة ونشر الدعوة يعد كل ذلك من الأساليب المطلوب الخوض فيها والبحث عنها طالما أنها توافق الشرع، والداعي على يقين من نصر الله تعالى له.

ونحن أمام إحدى هذه الوسائل التي عرضت على النبي في الروايات السابقة لسبب نزول هذه الآية كما روي عن سعد أو عن خباب أو عن الإمام أحمد وغيرهم

(١) أخرجه الإمام أحمد، والطبراني، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وكثير.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تخبر أن سادة قريش لم يعجبهم الحال الذي عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الطبقة الدنيا من الناس، فهيئة القوم الذين يجلسون معه هيئة رثة لأنهم من فقراء الناس ومن العبيد والموالي، وكذلك يجلسون في صدر المجلس وفي المقدمة وإذا حضر السادة يكونوا في المؤخرة وليس لهم الصدارة هذا إن حضروا أصلًا، فأشاروا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤخر هؤلاء عنه أو أن يطردهم من مجلسه لأنهم لا يرضون أن يكونوا تبعًا لهؤلاء أو أن يكونوا معهم في مجلس واحد، وبعدها سوف يؤمنون به، وقالوا: نجالسك ونحن سادة القوم وإذا اتبعناك سوف يتبعك الناس جميعًا، ودخل في نفس رسول الله ما شاء الله أن يدخل.

وربما يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأى أن هذه وسيلة من الوسائل التي لم يلجأ إليها خاصة وأن هؤلاء الفقراء قد تمكن الإيمان في قلوبهم فلن يضرهم شيئًا أن يتأخروا في نهاية الصفوف أو يتقدموا، بل ربما يسعد الفقراء بإيمان هؤلاء لأنهم سيضيفون للمسلمين الكثير من العزة والمنعة وقوة كبيرة، وهذا أيضًا كان رأي عمر بن الخطاب حين أشار على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون.

واستقر رأي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجرب تلك الوسيلة خاصة إذا كانت تصب في مصلحة الدعوة ويعود نفعها على الجميع، وتوفر لهم مجهودًا كبيرًا يحتاجون إليه في مهام أخرى، بل وتغلق باب العداوة الشديد بينهم، بل وتمنع الأذى الواقع على الفقراء الضعفاء والمغلوب على أمرهم منهم، لكل هذه الحيثيات رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستخدم تلك الوسيلة، وقد همّ صلى الله عليه وسلم أن ينفذ ما استقر عليه رأيه.

وينزل الوحي من السماء بالقرآن الكريم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليوجه رأيه إلى التوجيه السليم بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾،

ويعود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويمتنع عما هم به ليفعله، وينفذ ما أمر الله تعالى به، ويعرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الوسيلة التي أراد أن يسلكها لا تفيد الدعوة بل تضرها؛ لأن هؤلاء لم يكونوا صادقين في كلامهم، حتى لو كانوا صادقين وأسلموا لكانت لهم السطوة على المسلمين ولظنوا أنه لولا إسلامهم ما انتشر الإسلام ولا انتصر، وكما أن الإسلام لا يكره أحد على الدخول فيه كذلك لا يرضى أن يشترط أحد عليه شروطًا للدخول فيه، فهو قائم بفضل الله تعالى لا بفضل أحد من الناس.

Ƹ ǁ ƙũǩƗ ǴǾƩ Ǹqǩƚ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

۞ قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يطردهم من مجلسه فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام**».

۞ وقال ماهان الحنفي: أتى قوم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إنا أصبنا ذنوبًا عظامًا، فما إخاله رد عليهم بشيء فلما ذهبوا نزلت هذه الآية.

۞ وهذه الآية تأتي في إطار التوجيه الكريم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنسبة لهؤلاء الفقراء الذين أشير عليه أن يطردهم من مجلسه في متعلقة بالآية السابقة في التوجيه، وهذا كما في رواية عكرمة أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكتفي بعدم طردهم من مجلسه، بل عليه أنه إذا لقيهم أن يبدأهم بالسلام، وهذا منتهى التكريم لهؤلاء الذين آمنوا بالله تعالى، ويعد ذلك مكافأة لهم على إيمانهم وحرصهم لحضور مجلس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغداة والعشي لا يريدون شيئًا إلا وجه الله تعالى، أراد الكفار أن يهينوهم فأكرمهم الله تعالى وأعزهم، فكان امتثال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا التوجيه القرآني الكريم، فكان إذا لقيهم يبدأهم بالسلام عليهم ويقول: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام**»، ويدل هذا على مدى حرص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رضا الله تعالى وتنفيذ أوامره، وكذلك يدل على تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التواضع الشديد، ويدل أيضًا على أن هؤلاء بلغوا درجة كبيرة في حب الله تعالى لهم، أن يأمر نبيه أن يبدأهم بالسلام إذا لقيهم.

وعلى رواية ماهان الحنفي أن جماعة من المسلمين سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا يفعلون وقد فعلوا ذنوبًا عظامًا، وما حكمهم في ذلك، ولم يجبهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طلبهم انتظارًا للتوجيه الرباني في ذلك، حيث لم يكن لديه في ذلك الوقت ما يجيبهم به، فينزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه الصحيح لهؤلاء بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أضاء التوجيه لهم الطريق وبين لهم ماذا عليهم أن يفعلوا لكي يعودوا إلى الطريق المستقيم.

❁ ❁ ❁

Ʃ ǂ Ū ǻ ỲƘƮǩƗ ĠØ Σ ǸǭǩƗ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

۞ قال ابن عباس في رواية الوالبي: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون إلهك ربك، فنهى الله تعالى أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوًا بغير علم[(١)].

۞ وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله تعالى أن يسبوا قومًا جهلة لا علم لهم بالله.

۞ وقال السدي: لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا إلى الرجل فلندخل عليه فلنأمرنه أن ينهي عنا ابن أخيه، فإنا نستحيي أن نقتله بعد وفاته، فتقول العرب: كان يمنعه فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البحتري إلى أبي طالب، قالوا: أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمدًا قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه، فدعاه فجاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماذا يريدون؟**» فقالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك، فقال أبو طالب: قد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرأيتم لو أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب، ودانت لكم بها العجم؟**»، فقال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها فما هي؟ قال: «**قولوا: لا إله إلا الله**»، فأبوا واشمأزوا فقال أبو طالب: قل غيرها يا ابن أخي فإن قومك قد فزعوا منها، فقال: «**يا عم، ما أنا بالذي يقول غيرها، ولو أتوني بالشمس**

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٢٠٧)، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه (٢/ ١٥١) من طريق ابن عباس وإسناده صحيح.

فوضعوها في يدي ما قلت غيرها»، فقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

۞ الأمور تسير بعكس ما يريد كفار مكة وعلى غير هواهم، فهم ينتظرون فرصة يتخلى فيها محمد عن دعوته أو يتهيأ لها ما يعطلها عن سيرها، لكن الأمر مخالف تمامًا، فهم يرون أن محمدًا يزداد في كل يوم خطرًا عليهم، ولا يجدون حيلة معه في وقف هذا التقدم الذي يحققه، وقد حاولوا بطرق كثيرة لصد الناس عنه وعزله عن الناس، لكن كل ذلك لا يفيد، وفي هذه المرة يلجئون إلى طريقة جديدة وهي مقاومة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسلاحه في زعمهم، ولكن سلاح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الوقت هو إظهار أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر وبيان بطلان هذه الأوثان، فهم اعتبروا أن ذلك سب وشتم في هذه الآلهة، واعتبروا أن ذلك سلاح محمد الذي يستخدمه، ولذا عليهم التحرك لنصرة هذه الآلهة، أي آلهة هذه التي لا تستطيع أن تنصر نفسها وتحتاج إلى نصرة عبيدها، ولو نطقت هذه الآلهة في ذلك الوقت ما كان بوسعها إلا أن تتبرأ من عبيدها وإلا أن تصدق النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن تقول إنه الحق، ولكنه العناد الذي كان عليه أهل مكة في ذلك الوقت، فهم لجأوا إلى عمه أبي طالب يقدمون شكوى أن محمدًا يسب آلهتنا وأن عليه أن يمتنع عن ذلك وإلا سنسب إلهه ونشتمه كما يشتم آلهتنا.

فتحركهم هذا لم يكن دفاعًا عن الآلهة كما يزعمون بقدر ما هو طريق يسلكونه لصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوته، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتهز فرصة تجمُّعهم هذا ورأى أنهم يغيرون على أنفسهم في الحقيقة وليس على هذه الأحجار والأصنام التي يعبدونها، ويعرض عليهم عرضًا يحقق لهم أكثر مما يحلمون به وأكثر مما يتوقعون، إن كنتم تريدون عزة بين العرب وملكًا على العجم أعطوني كلمة واحدة ودعكم من سب

وشتم الآلهة التي تزعمون، فصغت الآذان، وطالت الأعناق، والتهبت المشاعر، وكادت القلوب أن تنخلع من مكانها وتطير شوقًا وطربًا لما قال، هذه المشاعر تلخصت في رد أبي جهل حين قال: نعم وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، انظر نسي أبو جهل ومن معه الآلهة التي جاءوا للدفاع عنها ونسوا عقيدتهم ونسوا كل شيء في سبيل المصالح الشخصية، لو كان لهؤلاء عقيدة جاءوا للدفاع عنها ما كانوا تنازلوا عنها حتى قبل أن يعرفوا العرض المعروض عليهم، فلما ذكر لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العرض بقوله: «**قولوا: لا إله إلا الله**»، أبوا واشمأزوا، رفضوا هذا العرض يريدون شيئًا ماديًّا سريعًا، فأراد أبو طالب أن يهون الأمر وأن يتوصل بينهم إلى حل، وظن أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طالما أنه يريد منهم كلمة واحدة فليغيرها لعلهم يرضون بقوله: يا ابن أخي قل غيرها، فلما رفض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتنازل عنها وعرفوا إصراره على ما يقول ولن يغيره أبدًا رجعوا إلى قولهم الأول إن لم ترجع عن سب آلهتنا لنسبنّ إلهك ونشتمه كذلك.

وينزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه القرآني المجيد أن يمتنع عن ذكر آلهتهم لأن هؤلاء جهلة فيعتدون على الله تعالى بغير علم، ونزل قوله: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾، وهكذا يمتثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتوجيهات القرآن الكريم له ويمتنع ومن معه عن سب هذه الأوثان لأن ذلك يتسبب في أن هؤلاء يتجرؤون على الله بالسب، فيتسبب المسلمون في ذلك من غير قصد.

❁ ❁ ❁

Ƹ ‡ Ũ ÆDIIKRǩŁ ĠØΣ ÑQ|ǩŁ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾.

[الأنعام:١٠٩-١١١]

❁ أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل قال عن محمد بن كعب: كلمت قريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أي شيء تحبون أن آتيكم به**»، فقالوا: اجعل لنا الصفا ذهبًا، قال: «**فإن فعلت تصدقوني**»، قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو، فجاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهبًا ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله: «**اتركهم حتى يتوب تائبهم**» ونزلت هذه الآيات[(١)].

❁ إن الإيمان المبني على الناحية المادية فقط كثيرًا ما يذهب بذهاب هذه المادة التي كانت سببًا فيه، وصحيح أن المعجزات الحسية تكون دافعًا قويًّا للإيمان أي هي مساعد على الإيمان وليست المحرك الأول له؛ لأن الذي يبني إيمانه على الحسيات فقط يصطدم بالغيبيات والسمعيات كيف يؤمن بها ولم يرها، ولذلك كثيرًا ما يسأم الناس هذه المادة

---

(١) أخرج معناه ابن جرير، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (فتح القدير ١/ ١٢٩)، والفرياني (العجاب ٣٧)، من طريق نجيح عن مجاهد وصححه الحافظ ابن حجر.

فيجحدونها ويكفرون بها بعد أن رأوها وآمنوا بها أولًا، والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد قصَّ القرآن الكريم لنا من هذه الأمثلة، منها ناقصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي يضربون بها المثل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت معجزة سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أخرجها الله تعالى لهم من الصخر أمام أعينهم، فهي ليست ناقة عادية وكانت تطوف عليهم باللبن الكل يشرب منها، فهم قبلوها أولًا ثم جحدوها وكفروا بها وقتلوها فنزل بهم العقاب من الله تعالى جزاء على فعلهم، أيضًا سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد ضربوا به المثل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد أن نجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون، وضرب لهم طريقًا في البحر معجزة أمام أعينهم وأغرق فرعون وجنوده أمامهم أيضًا وهم ينظرون، وبعد نجاتهم مباشرة وجدوا قومًا يعبدون صنمًا لهم، فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلهًا مثل إله هؤلاء، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وكذلك سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي جاءهم بهذه الآيات جحدوا هذه الآيات وكفروا بها وأرادوا قتله فنجاه الله تعالى منهم، ثم إن هذه الآيات كانت تنزل على الأنبياء تأييدًا لهم في مواقف الشدة، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يطلبوها شرطًا مقدمًا لدعوتهم ولكن الله تعالى كان يؤيدهم بها، ويوحي إليهم بها، أما أن يشترط أحد من الناس أن تكون له آية حتى يؤمن هذا لم يحدث إلا مع الكفار والمعاندين للأنبياء والرسل على مر الدعوات، وهذا ما حدث مع كفار قريش فهم يعادون الكرة مرة ثانية ويطلبون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتيهم بآية حسية يرونها أمامهم وينتفعون بها على هذا يؤمنون جميعًا ويتبعونه، هو كلام العناد والجهل، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أنه ليس هناك مانع من ذلك، أن يرسل الله تعالى لهم آية تكون لهم عونًا على الإيمان بالله تعالى، خاصة وأن الله تعالى واسع العطاء وشيء مثل هذا لا يعجزه، وهذا يأتي من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إيمان هؤلاء وضمهم إلى توحيد الله تعالى، ويتجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه يدعوه أن ينزل لهم آية كما طلبوا، أن يجعل لهم الصفا ذهبًا.

فينزل الوحي بالتوجيه القرآني على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات، أنه إذا أردت يا محمد أن يجعل الله تعالى لهم الصفا ذهبًا هذا شيء يسير ولا يعجزه، ولكن إذا جاءتهم وكفروا بها والله يعلم أنهم سيكفرون بها، فسوف ينزل بهم الهلاك مباشرة دون الانتظار لمن يتوب منهم، وإذا لم ترد ذلك أتركهم حتى يتوب تائبهم، أي: أنه إذا لم تكن هناك آيات وحدثت معصية فهناك فرصة للعصاة أن يتوبوا دون أن يكون هناك هلاك للجميع، وفي هذا رحمة عظيمة بالناس، ويختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوجيه القرآني ويختار الرحمة لقومه بقوله: «اتركهم حتى يتوب تائبهم»، ويبين الله تعالى حيثيات ذلك في الآية أنهم لم يكونوا صادقين في طلبهم هذا، وإنهم يقولون ذلك عنادًا وكفرًا، وأن الله تعالى علم مسبقًا أنهم لن يؤمنوا بهذه الآيات حتى لو أرسلت إليهم فيحل بهم العقاب الشديد الذي فيه هلاكهم.

Ƹ ǂ Ṻ ƤǩǨƦǩƚ ǴǾΣ Ǹɋǩƚ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

۞ قال الكلبي: إن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري فتربح؟ وبالأرض التي يريد أن تجدب فترحل عنها إلى ما قد أخصب، فنزلت هذه الآية.

۞ جمع الله تعالى للأنبياء كل صفات الكمال البشري، والتي منها العفة والطهارة وشرف النسب وكرم الأخلاق والفطنة والذكاء والجود والكرم وما شابه ذلك من صفات الكمال البشري، لكن صفات عرض الدنيا مثل الغنى والجاه والسلطان، هذه الصفات لم يجمعها الله تعالى لهم؛ لأن هذه الصفات لها تأثير في نفوس الناس، وفي هذه الحالة يكون إيمان الناس عن طريق تأثير هذه الصفات، ويرى الناس أن إيمانهم سيعود عليهم بالنفع ولهذا يؤمنوا، ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقيرًا، وكذلك سائر الأنبياء، وهذا المنهج الرباني في دعوات الأنبياء سائر لأن الله تعالى لا يريد أن تقوم دعوة الأنبياء على مؤثرات، فيكون ناتجًا عن تلك المؤثرات ولكن الله تعالى يريد أن يكون الإيمان خالصًا له تعالى، وليس هذا فحسب، بل يبتليهم الله تعالى بعد إيمانهم، لينظر هل كان الإيمان صادقًا أم أنهم رفعوا ذلك الشعار فقط قولًا.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣]، وأنواع البلاء هذا كثيرة فقد يكون غنيًّا قبل الإيمان فيصبح فقيرًا، وقد يكون صاحب جاه أو

سلطان قبل الإيمان فيفقده بعده، كل هذا لتنقية النفوس مما قد يعلق بها من رواسب الجاهلية بعد الإيمان، لكن الكفار والمنافقين لا يفقهون ذلك فهم يبنون عقيدتهم على الماديات الملموسة وعلى الفائدة التي تعود عليهم في الدنيا فقط، وهذا ما دفع المنافقين خاصة للانحراف عن الإيمان بعد أن رفعوه شعارًا لهم، فلما رأوا أن هذه المصلحة لم تتحقق في زعمهم انقلبوا على الإيمان وعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدأوا يفكرون في التخلص من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلية، وتحالفوا مع أهل الكتاب والمشركين في الكيد والتدبير للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمسلمين، كل ذلك لأن إيمانهم كان مبنيًّا على النواحي المادية فقط، بالطبع ليست هذه هي دوافع النفاق فقط بل هناك دوافع أخرى كثيرة، ليس المجال هنا مجالها.

وكما في رواية الكلبي: أن كفار مكة قالوا: يا محمد إن كنت نبيًّا حقًّا لماذا نراك فقيرًا تطلب رزقك مثلنا وتمشي في الأسواق، لماذا نراك تعاني في طلب الرزق، وأين إلهك؟ ألا يكفيك كل هذا؟ ولماذا يتخلى عنك؟ لماذا لا يخبرك ربك بالأشياء التي تكون سببًا في غناك عن كل هذا التعب الذي أنت فيه؟ ظنوا أن هذا التعب والعناء الذي يعانيه النبي في سبيل دعوته وكسب رزقه الحلال دليلًا على عدم نبوته، حتى أنهم رأوا أن اجتهاده في العبادة تعب ونصب دون فائدة، فقالوا: ما أنزل عليه القرآن إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:١-٥]، وهكذا كان رأيهم في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبل أن يجيبهم أو يرد عليهم ينزل الوحي عليه بالقرآن الكريم ليوجهه كيف يرد عليهم، وينزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، ليخبرهم أن هذا الطلب لا يملكه أحد من الناس، وكل

هذا بيد الله تعالى وليس بيدي، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ولكنني بشر مثلكم أبلغ دعوة الله تعالى، وأن الأرزاق يقدرها الله تعالى، هو أعلم بمن يصلحه الغنى فأغناه ومن يصلحه الفقر فأفقره أو فجعله فقيرًا، ربما يطلب الإنسان الغنى في المال أو غيره ويكون سببًا في هلاكه.

Ƹ ǂ Ū ŭλǂƸǩǂ ĠØΣ Ñqǩǂ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

[الأنفال:٦٧-٦٩]

۞ قال مجاهد: كان عمر بن الخطاب يرى الرأي، فيوافق رأيه ما يجيئ من السماء، وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشار في أسارى بدر فقال المسلمون: بنو عمك أفدهم، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقتلهم، ففداهم، فنزلت هذه الآيات توافق رأي عمر.

۞ وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: استشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأسارى أبا بكر، فقال: قومك وعشيرتك خل سبيلهم، واستشار عمر فقال: اقتلهم، ففداهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزلت هذه الآيات، وقال: فلقي عمر فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كاد أن يصيبنا في خلافك بلاء**».

۞ أخبرنا عبد الرحمن بن حمدان العدل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حدثني عمر قال: لما كان يوم بدر والتقوا فهزم الله المشركين وقتل منهم سبعون رجلًا، وأسر منهم سبعون رجلًا كذلك، واستشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر وعمر وعليًّا، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله للإسلام فيكونوا لنا عضدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ترى يا ابن الخطاب**»، قال: قلت: الله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن إن تمكنني من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان فيضرب عنقه حتى تعلم العرب أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناضيدهم، وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله، فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من الشجرة**»، لشجرة قريبة منه، وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية[1].

۞ عاش المسلمون في مكة ثلاثة عشر عامًا وهم يتحملون فيها شتى أنواع العذاب على أيدي كفارها، تحملوا ما لم يتحمله أحد، حتى أنهم كادوا يفتنون في دينهم لولا عناية الله تعالى بهم، ولا يجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيلة لهم إلا أنه يأمرهم بالصبر والتحمل لهذا البلاء الكبير، وكتب السيرة غنية بسير هؤلاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في إظهار ما تحملوه في سبيل التمسك بدينهم.

ومن ذلك مثلًا عائلة عمار بن ياسر وهم يعذبون في الرمضاء وفي الهجير، وكلما مر عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يجد لهم حيلة إلا أنه يأمرهم بالصبر ويبشرهم بالجنة بقوله: «**صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة**»، ومات الأب ياسر تحت التعذيب وماتت الأم سمية أيضًا تحت التعذيب، طعنها أبو جهل في موضع عفتها فماتت شهيدة في الحال وهي أول شهيدة في الإسلام.

ولم يجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخرجًا من كل ذلك إلا الهجرة وترك الديار والأهل والأموال، ليس هناك خلاص من هذا العناء والتعب الشديد إلا ترك الوطن وترك كل شيء في سبيل الحفاظ على الدين والصلة بالله تعالى، وهاجر المسلمون إلى المدينة المنورة

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٣) (ح١٧٦٣)، وأحمد (١٤/ ١٠٢) (ح٢٩٢)، وابن جرير (١٠/ ٣١)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٧)، وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ١٧١) من طريق سماك الحنفي به.

التي كانت في استقبالهم تفتح أبوابها وجميع منافذها لهم، ووجدوا فيها السعة والراحة بعد التعب والعذاب، بعد أن تركوا كل ما يملكون وراءهم فرارًا بدينهم، كانوا يهاجرون سرًّا فلا يستطيعون حمل أي شيء من متاعهم، وبعد أن استقر بهم المقام في المدينة وبعد هجرتهم بعام وفي السنة الثانية من الهجرة كان اللقاء مع المشركين في غزوة بدر، هذه الغزوة التي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجًا لاعتراض القافلة وليس للقتال، ولكن فرض عليهم القتال بعد خروجهم في الطريق، هذه الغزوة من أعجب الحروب في التاريخ، فقد كان المقتاتلون فيها إخوة وأبناء عمومة، أشقاء في النسب وأبناء العم في القبيلة، ولاشك أنها كانت بلاء شديدًا على المهاجرين وامتحانًا صعبًا للغاية، حيث كان الابن يقاتل أبيه والأخ مع أخيه، ولكنهم ثبتوا ونجحوا تمام النجاح في هذا البلاء، وأيّد الله تعالى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه بالنصر المؤزر على الكفار والمشركين، كان انتصارًا ساحقًا بكل المقاييس من ناحية العدد والعدة ومن ناحية كل شيء.

وانتصر المسلمون وقتل من الكفار سبعون رجلًا وأسر منهم سبعون كذلك، وقد حدث شيء جديد لم يحدث من قبل، الأسرى كان ذلك أول أسر في الإسلام، ماذا يفعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهؤلاء وكيف يتصرف معهم، وأخذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشير أصحابه، ماذا نفعل في هؤلاء؟ استشار أولًا أبا بكر فأشار عليه أن يقبل منهم الفدية وقدم لرأيه أن ما نأخذه نستفيد به وقد يهديهم الله تعالى للإسلام فيكونوا عونًا لنا على الكفار، وأنهم أبناء عمومة وأشقاء، واستشار عمر بن الخطاب، فكان رأيه مخالفًا تمامًا عن رأي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فكان رأيه أن نقتلهم حتى يعلموا أنه ليس في قلوبنا هوادة لهم، وليعلم الله تعالى أننا قطعنا كل وشائج الكفر وليس في قلوبنا إلا الإيمان الخاص، واختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأي أبي بكر وهواه وتبناه نظرًا للصلات التي تجمع بين الفريقين وللفائدة التي تتحقق من ذلك، وأخذ منهم الفدية.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما يخالف هذا الرأي موجهًا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى الرأي الذي رآه عمر بن الخطاب، وقد حمل التوجيه عتابًا شديدًا وتحذيرًا قويًّا أن الرأي الذي ذهبت إليه ليس هو الرأي الصحيح، والصحيح ما تركت، ونزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، وفي الواقع لولا نزول الوحي بما يخالف هذا الرأي لقلنا جميعًا نعم الرأي الذي أخذ به النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، خاصة وقد أسلم الكثير منهم مثل العباس بن عبد المطلب عم النبي بعد دفع الفدية، ونجد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعتذر مما أقدم عليه ويمتثل إلى توجيهات القرآن الكريم له.

Ʃ ǂ Ū 5 ǭĸŪǩǂ ĜǾƩŇqǩǂ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

۞ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: أعطني قميصك حتى أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له، فأعطاه قميصه ثم قال: «**آذني حتى أصلي عليه**»، فآذنه فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن الخطاب وقال: أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين، فقال: «**أنا بين خيرتين استغفر لهم أو لا تستغفر**» ثم نزلت هذه الآية(١).

۞ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول دعي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصلاة عليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله، أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا: كذا وكذا؟ أعدد أيامه، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال: «**أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت قد قيل لي:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، **ولو علمت أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت**»، ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت لي وجراءتي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله ورسوله أعلم، قال: فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزل

---

(١) أخرجه البخاري (ح٤٦٧٠)، ومسلم (ح٢٤٠٠)، وأحمد (٢٩٧)، والنسائي في الأصول (٢/ ١٦٧)، وابن ماجه (ح١٥٢٣)، وابن جرير (١٠/ ١٤١)، وابن أبي حاتم البيهقي كلهم عن طريق عبد الله بن عمر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ الآية، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى[1].

۞ عبد الله بن أبي بن سلول ليس منافقًا عاديًّا، وإنما هو زعيم المنافقين الذي قاد حركة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ إليها، ومواقفه مع المسلمين ومع النبي ﷺ غاية في الصعوبة والشدة، فهو لم يترك بابًا فيه مكر ولا خديعة إلا ودخله وحاول فيه بكل ما أوتي من قوة في المكر والخديعة، وكان له ابن اسمه عبد الله ابن عبد الله بن أبي بن سلول، وكان هذا الابن مؤمنًا صادقًا مع النبي ﷺ ومع المسلمين، مجاهدًا في سبيل الله صابرًا يرجو رضا الله تعالى، مات رأس النفاق والمنافقين وزعيمهم ابن سلول، وجاء الابن يرجو النبي ﷺ كما جاء في الروايات السابقة يطلب منه أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه، وطلب أيضًا أن يصلي عليه، وأن يستغفر له على قبره، إلى هنا ربما يبدو أن هذا الموقف من الابن متناقض مع إيمانه، لكن هذا التصرف من الابن ليس معناه الموالاة لأبيه أو أنه كان يحبه رغم كيده للنبي ﷺ، وإنما هو الإسلام الذي علَّم الأبناء البر بالآباء مهما كانوا، فقد علَّم الإسلام أتباعه أن يكونوا بارين بآبائهم وأن يغنموا أي فرصة لتوصيل البر إليهم، وهذا حق الآباء على الأبناء، أما أفعال الآباء فسوف يحاسبهم الله تعالى عليها، فلا يكون الابن قاضيًا وجلادًا على أبيه في نفس الوقت، فكان كل ما يعني الابن في هذا الموقف هو توصيل البر بأبيه حتى لا تكون هناك حجة للأب حتى بعد مماته يوم القيامة، هذا هو المحرك الأساسي للابن حينما طلب من النبي ﷺ أن يصلي عليه ويستغفر له، وكان موقف النبي ﷺ هو

(١) البخاري (٨/ ٣٣٣) (ح٤٦٧١)، أحمد الفتح الرباني (١٨/ ١٦٢) (ح٢٩٦)، والترمذي (٥/ ٢٧٩) (ح٣٠٩٧)، والطبراني (١١/ ٤٣٨) (ح١٢٢٤٤)، وابن جرير (١٠/ ١٤٢)، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم.

التقدير لهذا الابن الذي يحرص كل الحرص على أن يكون بارًّا بأبيه لأقصى درجة حتى بعد موته.

ولم ينظر النبي ﷺ إلى الأب ولا إلى أفعاله، وإنما نظر إلى رجاء هذا الابن، ووقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكره بهذه المواقف وبأقواله وأفعاله، ولكن النبي ﷺ يقول: أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت، ولو أعلم طريقة يغفر الله تعالى له بها لسلكتها أمام هذا الابن البار، وكما تقول الرواية الثانية للبخاري وغيره: أن النبي ﷺ صلى عليه وأقام على قبره يستغفر له، وهذه الرؤية للنبي ﷺ تأتي من الحرص الشديد للداعي على دعوته، وأن صاحب الدعوة لا يتعلق بذهنه شيء مما ناله من الأذى على أيدي هؤلاء، رغم أنه ﷺ قد ناله أذى مباشر من هذا الرجل في عرضه وفي بيته، فهو صاحب حديث الإفك الذي أدخل على النبي ﷺ ما لم يدخله عليه أحد من الناس، وهو صاحب مواقف الخذلان في الغزوات وملاقاة الأعداء، ورغم ما عرض عليه من قتل هذا الرجل بعد عدة مواقف ظاهرة على كفره وعناده، وكان ﷺ ينهاهم عن قتله؛ لأن ذلك يحدث فتنة في ذلك الوقت، أن يقال إن محمدًا يقتل أصحابه؛ لأنه كان يجلس معهم ونطق بالشهادتين، ويصلي معهم، فقتله يحدث بلبلة في فهم طبيعة هذا الدين، ورغم أن ابنه عبد الله طلب من النبي ﷺ أنه إذا أردت قتله فاتركني آتيك برأسه، كل ذلك والنبي ﷺ يرفض، لهذا لا ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن ينظر إلى مواقف الأعداء.

واختار النبي ﷺ أن يصلي عليه وأن يقوم على قبره ويستغفر له.

وينزل الوحي على رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم برأي آخر ليوجه رأيه إلى وجهة أخرى برأي مخالف لما رأى ﷺ، وينهاه نهيًا قاطعًا عن فعل ذلك

ثانية، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾، ويتوجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوجيه القرآن الكريم ويمتنع تمامًا عن الصلاة أو الاستغفار أو الدعاء لأحد منهم بعد ذلك، ولم يذكر أنه عاد إلى ذلك أبدًا حتى قبضه الله تعالى.

Ƹ ǂ Ū ƻ YǨ ȿ ǩƗ ǴØΣ Ǹqǩƚ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

۞ عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «**أي عم قل معي: لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله**»، وقال أبو جهل وابن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة عبد المطلب، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فنزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾[1].

۞ وأخبر أبو سعيد ابن أبي عمرو النيسابوري لما مرض أبو طالب مرض الوفاة وحضر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إليه فقال: «**يا عم جزيت عني خيرًا كلفتني صغيرًا وحطتني كبيرًا جزيت عني خيرًا، يا عم أعني على نفسك بكلمة واحدة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة**»، قال: وما هي يا ابن أخي؟ قال: «**قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»، فقال: إنك ناصح والله لولا أن تعيرني قريش عنه، فيقال: جزع عمك عند الموت لأقررت بها عينك، قال: فصاح القوم، يا أبا طالب إن رأس الحنيفية ملة الأشياخ، فقال: لا تحدث النساء أن عمك جزع عند الموت، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لأستغفرن لك ربي ما لم**

---

(١) أخرجه البخاري فتح الباري (٨/ ٣٤١) (ح٤٦٧٥)، ومسلم (١/ ٥٤) (ح٢٤)، وأحمد في الفتح الرباني (١٨/ ١٦٥) (ح٣٠٠)، وابن جرير (١١/ ٥)، والطبراني (ح٢٧٨)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٤٢-٣٤٣).

يردني»، فاستغفر له بعدما مات، فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذي قرابتنا، إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد استغفر لأبيه، وهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر لعمه، فاستغفروا للمشركين، فنزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ فامتنعوا[1].

۞ أبو طالب: لم يذكر هذا الرجل إلا ويكون في النفس شيء لهذا الرجل، هذا الرجل الذي كفل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صغيرًا وكان يقربه منه ويقدمه على أولاده وأحاطه بكل الرعاية والحنان، وقدم له بعد البعثة الدعم المعنوي والمادي الكبير ودافع عنه ضد بطش قريش، ووقف حائلًا دون إيذائه، وكانت قريش تخشاه إذا أرادت أن تلحق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذى، كلما ذكر هذا الرجل تتردد النفس أن تلعنه لما قدم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك لا تترحم عليه لأنه مات كافرًا، سبحان الله هذا الرجل مات كافرًا، إن كثيرين من الكفار أكرمهم الله تعالى بالإسلام رغم أنهم كادوا للإسلام والمسلمين كثيرًا، إن أبا سفيان وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، لم يكونوا أفرادًا عاديين بل كانوا قادة الكفر الذين حملوا السلاح وقادوا الجيوش ضد الإسلام والمسلمين، ولكن في النهاية أكرمهم الله تعالى بالإسلام وحسن إسلامهم، إن وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب الذي أدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزنًا ما بعده حزن أكرمه الله تعالى بالإسلام وأسلم وحسن إسلامه أيضًا، إن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان التي بقرت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكت جزءًا منه ثم لفظته أكرمها الله تعالى بالإسلام وأسلمت بعد ذلك، وغيرهم الكثير والكثير أمثالهم، سبحان الله، وأبو طالب مات كافرًا.

لما حضرت أبا طالب الوفاة وجاءه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجوه أن يقول كلمة واحدة وهو على فراش الموت يشفع له بها عند ربه تعالى، ربما لا يقول بعدها شيئًا وربما لا

(١) النيسابوري في أسباب النزول (٢٦١-٢٦٢).

يستطيع أن يؤدي شيئًا من شعائر الإسلام ثم يلقى ربه عليها، قلها يا أبا طالب وخير الناس يرجوك أن تقولها ويقف على رأسك، آه لو قلتها يا أبا طالب لنلت دعوات وعاطفة المسلمين إلى يوم القيامة، ما الذي يمنعك يا أبا طالب؟ كلام الناس، وهل رأيت أحدًا بعث بعد موته وعيره الناس بما قال؟ قلها ولا يضرك كلام الناس فكثيرًا ما يتحدث الناس بكلام ليس حقًّا ولا قيمة له، ولكن الرجل لم يقلها، ومن العجيب أن الرجل نطق بكلمات أخرى، أنا على ملة عبد المطلب، ولو سكت ولم يقل شيئًا لقلنا ربما أراد أن يقولها ولكن عدم النطق منعه، أو قالها في نفسه، لكن الرجل نطق بكلام آخر، على ملة عبد المطلب، ربما لو كان عبد المطلب حيًّا ما وسعه إلا أن يتبع محمدًا ﷺ ولكن الرجل لم يقلها.

ومواقف الرجل مع النبي ﷺ أكسبته عاطفة المسلمين ولكن ماذا تفيد العواطف نحوه والحال لا تنفعه العواطف، لكن هناك شيء، ربما هذا الرجل عاش حياته للناس، يخشى الناس ويطلب رضاهم في كل شيء حتى وهو في النزع الأخير ويعلم أن النبي ﷺ على الحق لكنه يخشى ويحب أن يقال عنه أنه صاحب مبادئ وقد مات عليها، فأكسبه الله تعالى عاطفة الناس حتى إذا أتى يوم القيامة يقول له الله تعالى: عشت حياتك تخشى الناس ولا تخشى الله تعالى، أكسبناك ما كنت تريد، وما عشت حياتك من أجله، وما حرصت عليه بعد مماتك لكن ما نفعك هذا، ومن شدة عاطفة الناس قال البعض: إن الله تعالى أحيا أبا طالب للنبي ﷺ فأسلم، لكن هذا الكلام ليس صحيحًا على الإطلاق، لكنها عاطفة الناس ومات أبو طالب على حاله والنبي ﷺ يحمل له رقة ويحمل له جميلًا كبيرًا ولم يجد حيلة إلا أنه يقول: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، هذا ما وسع النبي ﷺ أن يفعله لرجل كان سنده في وقت الشدة والأزمات، طالما أنه لم يحقق رغبته التي يريدها ويستغفر له، ويرى الصحابة رضوان

الله عليهم أن هذا عمل مشروع هذا رسول الله ﷺ يستغفر لعمه الذي مات مشركًا وقبله سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يستغفر لأبيه الذي مات كافرًا، إذن هذا عمل ليس فيه مخالفة شرعية، نقتدي بالنبي ﷺ ونستغفر نحن لآبائنا وذوينا الذين ماتوا على الشرك لعل الله تعالى يقبل ذلك فيعتقوا من النار، وبدأوا فعلًا يستغفرون لآبائهم وذويهم الذين ماتوا مشركين.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم على النبي ﷺ ليوجهه بالتوجيه الصحيح أنه لا يجوز لك ولا للمؤمنين أن تستغفروا للذين ماتوا على الشرك مهما كانت صلة القرابة بينكم وبينهم، بغير ما أراد النبي ﷺ وأصحابه في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾.

وعلى وجه السرعة يعرف النبي ﷺ أن هذا لا يصح فيمتنع عن الاستغفار له ويأمر أصحابه أن يمتنعوا عن الاستغفار للمشركين فيمتنعوا أيضًا.

أما عن استغفار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه فهذه كانت لموعدة وعدها إياها في حياته، وليس بعد مماته، فلما تبين له أنه عدو لله امتنع ولم يفعل.

❁ ❁ ❁

Ƹ ‡ Ū ŭƛĸ ѕ ǩŧ ǴØ Σ Ǹqǩŧ

قَالَ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

۞ روى ابن المبارك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: طلع علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الباب الذي دخل منه بنو شيبة ونحن نضحك فقال: «**ألا أراكم تضحكون**»، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: «**إني لما خرجت جاء جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فقال: يا محمد يقول الله تعالى: لما تقنط عبادي؟**» ونزل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

۞ الجدية في الدعوة مطلوبة لابد أن يكون الداعي إلى الله تعالى جادًّا في عمله ليس لاعبًا ولا متهاونًا لأن مهامه صعبة تحتاج منه إلى بذل الكثير في سبيل دعوته وتحتاج منه أيضًا إلى توجيه مجهودات الغير إلى الدعوة ولا يكتفي بمجهوده فقط، والوقت هو الذي يستوعب كل ذلك، فإذا ضاع الوقت فيما لا يفيد فقد ضاع كل شيء معه.

والمسلم يجاهد على جبهات كثيرة فهو يجاهد لإصلاح نفسه وكذلك لإصلاح المجتمع حوله، وهو يجاهد الدنيا والهوى والشيطان والنفس وشياطين الإنس والكفار، هي جبهات كثيرة لا تتركه يؤدي عمله دون أن ترصد له كل طريق يسلكه وكل حركة يتحركها فهو لا يؤدي عمله دون مضايقات، ودون حواجز تمنعه من آداء واجبه، من هنا لا وقت لدى الداعي لكي يضيعه فيما لا يجدي نفعًا لدعوته، فالدعوة محاربة ومحاربة، فهي محاربة لهذه الجبهات ومحاربة من هذه الجبهات أيضًا، وكما روى ابن المبارك عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه طلع علينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الباب ونحن نضحك فقال: «**ألا أراكم تضحكون**»، وكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر منهم هذا الفعل ظنًّا منه

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٢٧)، وابن مردويه في فتح القدير (٣/ ١٣٦)، عن طريق ابن المبارك عن مصعب ابن ثابت عن عاصم بن عبد الله عن عطاء عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أنهم تهاونوا في حالهم، أنكر عليهم الحالة التي كانوا عليها من الضحك وخوفًا منه عليهم أن يتسلل إليهم عدو من هؤلاء الأعداء فيصيب منهم غرة وتهاونًا، ويصيب منهم فتورًا فتكون الكارثة عليهم، ويأتي هذا من علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمواطن الخطر وبمكامنه فهو ينبههم على ذلك.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه القرآني بغير ما رأى، وبغير ما أشار ليوجه رأيه إلى الرأي السليم وينزل قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي الأمر ليس كما رأيت هؤلاء لم يتهاونوا، ولم يكونوا في موقف فتور وإنما هي ساعة ترويح عن النفس وهذا لا يتنافى مع جدية المسلم ولا يتعارض مع دعوته طالما أنه يقول حقًّا، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمزح مع أصحابه ولا يقول إلا حقًّا، والمطلوب أن يكون المسلم جادًّا في وقت الجد أما الأوقات التي ليس فيها شدة على المسلم لا مانع من أن يروح عن نفسه بالحق، وعلى هذا نجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجع القهقهرى كما تقول الرواية وهو يقول: «**نزل عليّ جبريل وقال: يا محمد إن الله تعالى يقول لك: لما تقنط عبادي من رحمتي**»، وأخبرهم أن الله تعالى يعاتبه ويوجهه في شأنهم، ويخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا التوجيه ويتلو عليهم ما نزل من القرآن في شأنهم.

Ƹ ǂ Ǖ ǰ ǬƘƦǩǂ ǴǾ Ʃ Ǹɑǩǂ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

۞ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نزلت في مشركي قريش أنكروا نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فهلا بعث إلينا ملكًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

۞ دائمًا وأبدًا يبحث أهل الباطل عن الحجج الواهية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فهم يبحثون عن وسيلة لعلها تخرجهم مما هم فيه، فهم تارة يرمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكذب وهم يعلمون أنه لم يكذب ولم يجربوا عليه كذبًا قط، لا قبل ادعائه لهذا الأمر ولا بعده، وتارة يرمونه بالسحر وهم يعلمون أنه ليس بساحر، وتارة يرمونه بأن ما جاء به أساطير الأولين وهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب حتى يأتي بها في كتب الأولين، ذهبوا في كل اتجاه وسلكوا كل طريق لعلهم يجدون بارقة أمل يسيرون خلفها، ولكن كلها باءت بالفشل لأنها حجج واهية لا أصل لها.

وها هم يزعمون حجة جديدة من حججهم الواهية، إذا أراد الله أن يبعث إلينا رسولًا لا يبعثه بشرًا بل لابد أن يبعثه ملكًا يأمرنا وينهانا، قالوا ذلك بعد أن فشلوا في جميع الحجج التي ساقوها وبعد أن نفدت جعبتهم بما فيها، وبالاختصار حدث لهم إفلاس فكري في كيفية مواجهة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن هذه الحجة اعتراف ضمني بالمنهج الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذن الاعتراض هنا على من يبلغ هذا المنهج، لو أتى به ملكًا لاتبعناه وهم بهذه الحجة يسيئون الفهم بالنسبة للبشر، فإن إرسال رسول

(١) أخرجه ابن جرير (١٤/ ٧٥)، وابن أبي حاتم في فتح القدير (٣/ ١٦٧)، من طريق الضحاك عن ابن عباس.

من البشر إلى الناس هذا منتهى التكريم للجنس البشري أن يكون رسولهم منهم ومن جنسهم، ومعنى هذا أن هذا الجنس يستطيع أن يتحمل مسئولية نفسه، أن يكون واحدًا منهم يعرف طباعهم ويقوم بالأعباء مثلهم هذا تكريم من الله تعالى للبشر عامة، وكون الرسول بشرًا هذه نعمة من الله تعالى علينا تستحق أن نشكره شكرًا خاصًّا يساوي نعمة إرسال الرسالة ذاتها، وهم بذلك لا يطلبون الهداية، إذ لو كانوا يطلبونها فإنها أقرب إليهم من أي شيء، وإنما هم يتملصون من الواقع الذي هم فيه.

وكيف يبعث الله تعالى رسولًا ملكًا إلى البشر؟ فلو أرسل الله تعالى للناس ملكًا فسيكون على وجه من وجهين:

الأول- أن يكون ملكًا بهيئته وصورته التي خلقه الله عليها وهذه الصورة لا يستطيعها البشر، ويأتي بالأمر النهائي ولا يستطيعون التعامل معه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام:٨].

والثاني- لو أنزل الله تعالى ملكًا بالرسالة وكان على صورة البشر حتى يمكنهم مخاطبته والتعامل معه والأخذ منه، وفي هذه الحالة سيلتبس الأمر عليهم ثانية كما التبس أولًا، ويقولون: إنه رجل بشر وليس ملكًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

وينزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه القرآني قبل أن يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، أي أن هذه سنة الله تعالى في إرسال الرسل، كل الرسل من البشر يوحي إليهم ربهم هذه المناهج ليبلغوها للناس، وليس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول رسول من البشر بل كل الأنبياء السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من البشر، وبهذا تبطل حججهم التي يسوقونها في كل مرة.

Ƹ ǂ Ǖ ŭ5ƘɑǩƗ ǴØΣ ǸɑǩƗ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٨].

۞ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما انصرف المشركون عن قتلى أُحُد انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرأى منظرًا ساءه ورأى حمزة قد شق بطنه واصطلم أنفيه وجدعت أذناه، فقال: «**لولا أن يحزن النساء أو أن يكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله تعالى في بطون السباع والطير، لأقتلن مكانه سبعين رجلًا منهم**» ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه فجعل على رجليه شيئًا من الإذخر ثم قدمه وكبر عليه عشرًا ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآيات، فصبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يمثل بأحد منهم(١).

۞ وذكر أبو الحسن النيسابوري قال: قال المفسرون: إن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحُد من تبقير للبطون، وقطع للمذاكير والمثلة السيئة، قالوا حين رأوا ذلك: لئن أظهرنا الله تعالى عليهم لنزيدن على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، ولنفعلن ولنفعلن، ووقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وأذنه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطنتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أما إنها لو أكلتها لم تدخل النار أبدًا، حمزت**

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١١٨) (ح٤٧)، من طريق إسماعيل بن عياش وقد ضعفه وقيل إنه يغلط.

أكرم على الله من أن يدخل شيئًا من جسده النار»، فلما نظر إلى حمزة نظر إلى شيء لم ينظر قط إلى شيء كان أوجع لقلبه منه فقال: «**رحمة الله عليك، إنك ما علمت كنت وصولًا للرحم فعَّالًا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لأمثلن بسبعين منهم مكانك**»، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل نصبر**» وأمسك عما كان يريد وكفَّر عن يمينه[(١)].

۞ في غزوة أحد تلقى المسلمون درسًا قاسيًا من دروس التربية العملية في الميدان، أمكن الله تعالى منهم عدوهم وتفرق الصف المسلم ونال الأعداء منهم نيلًا شديدًا، وذلك لأنهم خالفوا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة مرتين، في الأولى كان رأي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون القتال داخل المدينة، وقد أشاروا عليه أن يكون خارجها وتحت إلحاحهم وافق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأيهم وخرج خارج المدينة، وفي الثانية حينما ترك الرماة أماكنهم التي كلفهم بالقيام فيها وإن رأيتم أن رقابنا تقطع أو تتخطفنا الطير، لكنها إرادة الله تعالى لتربية الصف المسلم وحدث ما حدث، والإسلام يربي أتباعه على الأخلاق الحسنة في القتال، وكذلك التوجيهات النبوية، ويخبرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ميدان الجهاد أحوج الميادين للأخلاق الحسنة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث بالسرايا والفتوحات ويوصيهم: «**لا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا طفلًا صغيرًا، ولا امرأة، ولا فارًا، ولا تجهزوا على جريح، لا تقاتلوا إلا من قاتلكم**»، تلك هي الأخلاق التي يربي الإسلام أتباعه عليها في القتال، ولا يكون القتال إلا لغرض مشروع أو صد العدوان، هذه الأخلاق التي يحاول المتحاملون على الإسلام طمسها وإخفاءها عن الواقع وليس هذا كلامًا فقط، بل ما يذكره أصحاب السير يؤكد هذا، والأمثلة في ذلك أكثر مما تحصى وكذلك ما يذكره

(١) أخرجه أحمد في الفتح الرباني (١٨/ ١٩٢) (ح٣٢٦)، والترمذي (٥/ ٢٩٩) (ح٣١٢٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٩)، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان والطبراني وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة والبيهقي في الدلائل.

أصحاب التاريخ، ومن أقرب الأمثلة في ذلك الوقت ما حدث في غزوة بدر والتي هي بالأمس القريب مما حدث في غزوة أُحُد، وما حدث أن بعض الصحابة كان يمر بالسبايا من الأسرى وقد مر بهم بين أهلهم وذويهم القتلى، فعنفه النبي ﷺ تعنيفًا شديدًا بقوله: «**أنُزِعت الرحمة من قلبك؟**»، أي: كيف تفعل هذا؟ كيف تمر بالنساء بين القتلى من أهلهم؟ ليس هذا من أخلاق الإسلام والمسلمين، ولما رجع ﷺ في غزوة بدر إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه وقال لهم: «**استوصوا بهم خيرًا**»[(١)].

انظر إلى النبي ﷺ يوصي بهؤلاء الذين جاءوا لقتل الإسلام والمسلمين في المدينة، وحملوا عليهم، لكن الله تعالى هزمهم وأوقعهم أسرى في أيدي المسلمين، ومع ذلك يوصي بهم ﷺ خيرًا، تلك هي أخلاق النبي ﷺ في القتال، وهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير قال: كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسرى خيرًا**»، وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البر لوصية رسول الله ﷺ[(٢)].

وهذا أبو العاص بن الربيع يقول: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيرًا، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر والخبز معهم قليل والتمر زادهم حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة من الخبز فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن المغيرة يقول ذلك ويزيد وكانوا يحملوننا ويمشون هم[(٣)].

وهذه الأخلاق التي جعلت أشراف قريش من الأسرى يعلنون إسلامهم ويعودون لبلادهم يحدثون عن النبي ﷺ وعن مكارم أخلاقه وعن محبته وسماحته[(٤)].

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).
(٢) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦).
(٣) المغازي للواقدي (١/ ١١٩).
(٤) السيرة النبوية د. الصلابي (٤٠٤).

غير أن الذي حدث من المشركين في غزوة أُحُد شيء آخر لم تعرف العرب مثله قط، لما انصرف المشركون وجد النبي ﷺ منظرًا من أصعب وأشد ما رأى ﷺ والمسلمون كذلك، وكشف الحال عن الحقد الدفين الذي يحمله المشركون للمسلمين، والمسألة ليست مسألة قتال فقط بل تعدت ذلك بكثير، ووجد أن العرب قد تخلوا عن الشهامة العربية وعن الكرامة في القتال، بل اتصفوا بصفات الخسة والنذالة، وهؤلاء أصبح لهم مفهوم جديد وأصبحوا لا يعرفون إلا هذا المنطق وهذه المعاملة، ومن هنا لا يردعهم إلا الفعل الذي يفهمونه ويخافون منه، وذلك الذي دفع النبي ﷺ أن يقسم ليفعلن بسبعين رجلًا منهم مثل فعلتهم وكذلك قال المسلمون.

وينزل الوحي على النبي ﷺ بالتوجيه القرآني ليوجه رأيه إلى توجيه آخر غير الذي أراده النبي ﷺ وينزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

انظر إلى التوجيه القرآني في ظل هذه الظروف وفي ظل الحالة النفسية التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه، ومع ذلك يأمرهم بالدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وإذا أردتم أن تعاقبوا فليس لكم إلا أن تعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولا يجوز لكم أن تتعدوا ذلك، بل وإذا تركتم المعاقبة أصلًا يكون خيرًا لكم، ولئن صبرتم عن فعل ذلك فالصبر خير لكم، واختار النبي ﷺ الصبر، وقال: بل نصبر، وامتثل للتوجيه القرآني وأمر الصحابة بذلك، وكفر عن يمينه الذي حلفه في هذه الحالة.

ǯƤƩ ǂ ūǩǂ ĠǾΣ Ǹǭǩǂ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

۞ عن سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف، لم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك وحدثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال: «**الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات**»(١).

۞ قامت دعوة الإسلام وانتشرت على عاتق صنفين من الناس، الصنف الأول هم الضعفاء من الناس الذين ليس لهم قرار، ولا يملكون حماية أنفسهم، فهم إما رقيق أو فقراء ليس لهم قبيلة تحميهم، وبالطبع كان هناك من سادة في أوائل الدعوة وكان لهم الفضل الكبير أمثال أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لكن الأكثرية كانت من فقراء القوم، والصنف الثاني: هم الشباب الصغار وهؤلاء أيضًا لا يملكون القرار بل قرارهم بيد الشيوخ وأعزة القوم، وكان الصنف الأول الأكثر في أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت الحالة الظاهرة منهم الفقر الواضح على هيئاتهم في ثيابهم وأشكالهم، هذه الحالة لم تعجب

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٥٦)، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب، وأبو الشيخ في فتح القدير (٣/ ٢٨٣)، من طريق سلمان بن عطاء، وفيه ضعف.

وجهاء القوم في ذلك الوقت، ولهذا حكمة كبيرة في أن يكون أول من نصر الإسلام هذه الفئة من الناس ترد على من زعم أن الإسلام انتشر بالسيف، هذه هي نواة الإسلام الأولى وبذرته التي نبتت في أول الأمر نوعية من الناس لا تستطيع أن تعتدي على أحد بل لا تستطيع أن ترد عن نفسها الأذى أو ترفع العدوان إذا وقع عليها ومصيرها بيد غيرها، والسلاح الوحيد الذي يملكونه هو سلاح الإيمان والصبر وتحمل كل أنواع الأذى، وقد عجز الكفار أن ينالوا منهم شيئًا، وقد شاء الله تعالى ذلك حتى لا يظن أحد أن الإسلام اعتمد على أي شيء في قيامه، أو أن أحدًا له الفضل في قيام دعوة الإسلام.

وقد شاء الله تعالى ذلك أيضًا حتى يعرف أتباع الإسلام أن الله تعالى ناصر دينه وأن الإسلام ينمو ويتقدم مهما تكاتفت كل قوى الشر والبغي، وها هم يزعمون حجة من حججهم الباطلة لعلها تنال من النبي ﷺ وتفرق أصحابه عنه، وقالوا: لو نحيت هؤلاء عن صدر المجلس لجلسنا معك واستمعنا إليك، فنحن نكره أرواح جبابهم ونكره وجودنا معهم، وأراد النبي ﷺ أن يفند تلك الحجة وأن يبطلها وأراد أن يظهر لهم ذلك فأشار على القوم أن يتأخروا عن المجلس ويفسحوا المجلس لهؤلاء.

وينزل الوحي بالقرآن الكريم على النبي ﷺ بالتوجيه الصحيح لا تؤخر هؤلاء عنك وكن معهم بقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾، أي: لا تترك هؤلاء ولا تؤخرهم عنك ودعك من مزاعم هؤلاء فهم لا خير فيهم، فالإيمان الصادق لا ينظر إلى تلك الأشياء، الإيمان حينما يدخل القلوب يذيب كل رواسب الجاهلية وكل نعرات التعصب، فقام النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتمسهم فوجدهم في مؤخر المسجد فجلس معهم وقال: «**الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات**»، تحمد الله تعالى أن أمره أن يصبر نفسه مع رجال من أمته، فالحمد هنا على أن رجالًا وصلوا للدرجة التي يأمر الله تعالى نبيه أن يصبر نفسه معهم.

ǯƿƐ ǂ ūǩŧƿ ƴ ƈ ŧǸǩŧ ǴǾ Ʃ Ǹǭǩŧ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا
وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا
زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ
﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ
ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

[الأنبياء:٩٨-١٠٣]

۞ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: آية لا يسأل الناس عنها، لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها أو جهلوها فلا يسألون عنها، قيل: وما هي؟ قال: لما نزلت ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ شق على قريش فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا: يشتم آلهتنا، قال: فما قال؟ قالوا: يقول: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ قال: ادعوه لي، فلما دعي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا محمد، هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله؟ قال: «**لا، بل لكل من عبد من دون الله**»، فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية يعني الكعبة، ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزير عبد صالح؟ قال: «**بلى**»، قال: فهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى، وهذه اليهود يعبدون عزيرًا، قال: فصاح أهل مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ

﴿ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، والملائكة وعيسى وعزير من المبعدين عنها[١].

۞ استخدمت قريش كل ما لديها من الوسائل لمحاربة النبي ﷺ بدءًا من الإيذاء بالقول والفعل وشتى أنواع الوسائل والتي منها عقد المناظرات معه ومجادلته بغير حق، وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يجادلهم ويبطل حججهم وأدلتهم، وقد ظهر هذا النوع من الحرب جليًّا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، حيث كان جدال الكفار في مكة ظاهرًا وهو أقرب للسذاجة منه إلى العقل، أما في المدينة فكان جدال أهل الكتاب والذين لهم سابق معرفة بالدين، فكان جدالهم يغلب عليه المكر والحيلة من جدال الكفار في مكة، الجدال في المدينة كان لإخفاء حقيقة النبي ﷺ، أما في مكة فكان لإنكار الحقيقة ويعتمد على العنجهية، لكن الجدال في هذه المرة في مكة لم يكن جدالًا مما تعودوا عليه بل كان يستند إلى أدلة، لما نزلت آية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، جاء من يجادل عنهم كما أخبر الطبراني عن ابن عباس، جاء ابن الزبعري إلى رسول الله ﷺ وقال: هذا لآلهتنا خاصة أم لكل من عُبد من دون الله؟ فقال: «**بل لكل ما عبد من دون الله**»، هنا وكأن الرجل وجد ضالته، وقد لقن حجته وأخذ يسوق الأدلة للنبي ﷺ ويضرب الأمثلة بالملائكة وعيسى وعزير عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي الواقع هي حجة بليغة، حيث قال الرجل: خصمت ورب هذه البنية، أي: وقعت في شر أعمالك، ظن أنه وجد ضالته، هذا اللون من الجدال العقلي المستند إلى أدلة في غير موضعها لم تكن مكة تعرفه قبل ذلك، لكن الرجل استخدمه، انتشر هذا اللون من الجدال كثيرًا بعد ذلك، ففي أحيان كثيرة يستخدمون أدلة من القرآن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٥٣) (ح١٢٧٣٩)، وإسناده حسن وله شواهد عند الحاكم في المستدرك والفريابي وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس وإسناده صحيح.

الكريم لوضع بذور الشك في نفوس المسلمين، استخدمه أعداء الإسلام ويستخدمونه إلى يومنا هذا، يستخدمون النصوص في غير موضعها ويخلصون إلى نتائج مبنية على النصوص المعوجة، فهم يلوون أعناق النصوص وفق هواهم، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالمرصاد، وكذلك قيض الله تعالى ويقيض علماء من المسلمين يفندون ويدحضون تلك الحجج والمزاعم، وقد ذكر الله تعالى في كتابه وكشف عن نيتهم وسوء تدبيرهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

فلما ذكر ذلك ابن الزبعري ضج الناس مما ذكر ضجة كبيرة والناس معذورون في ذلك لأنه كلام به فتنة كبيرة.

فينزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه القرآني للرد على هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، ليضع الوحي ردًّا قاطعًا على تلك المزاعم وعلى هذا اللون من الجدال، ويبين أن هؤلاء قد سبقت لهم منا الحسنى فهم مبعدون عن جهنم التي هي موعد الكفار وما يعبدونه من دون الله، هذا اللون من الجدال تكرر كثيرًا بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكفار والمنافقين وأهل الكتاب، وكان التوجيه القرآني لهم بالمرصاد، فيحبط جدالهم ويفند حججهم إلى يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

ǯpƐ ǂ ükǐp ǼDŽkŘǩ ǴøƩ Ǹqǩ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ
الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا
لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن
نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي
الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:١١-٢٠].

۞ عن عائشة رضي الله عنها حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى من بعض لحديثها، وأثبت اقتصاصًا ووعيت عن كل واحد الحديث الذي حدثني، وبعض حديثهم يصدق بعضًا، وذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت معه، وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه مسيرنا حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته وقفل ودنونا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت حاجتي أقبلت إلى الرحيل فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون

بي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت عائشة: وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العقلة من الطعام، فلم يستنكر القوم نقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعوا إليّ.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الزكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب على الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتين الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، وهلك من هلك في وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمتها شهرًا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»، فذلك يحزنني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها

فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئسما قلت أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟ قالت: أي هنتاه أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضًا إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: «**كيف تيكم؟**» قلت: تأذن لي أن آتي أبواي؟ قالت: وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبواي فقلت: يا أماه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن، فقالت: فقلت: سبحان الله، أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: فبكيت تلك الليل حتى أصبحت ولا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ عليًّا بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله تعالى عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا النبي ﷺ بريرة فقال: «**يا بريرة، هل رأيت شيئًا يريبك من عائشة؟**»، قالت بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن تأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد

ابن عبادة وكان رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذب لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد ابن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه إنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها وجلست تبكي معي، قالت: فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «**أما بعد يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالىن وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه**».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن، والله لقد عرفت أنكم سمعتم هذا واستقر في نفوسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم إني بريئة منه لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا ما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]، قالت: ثم تحولت واضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى

رسول الله ﷺ رؤية يبرئني الله تعالى بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ منزله ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ وأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه من الوحي.

قالت: فلما سري عن رسول الله ﷺ سر عنه وهو يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة أما والله لقد برأك الله**»، فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى، فهو الذي برأني، قالت: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى عشر آيات من سورة النور من (١١ : ٢٠)، فلما أنزل الله تعالى العشر آيات في براءتي قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا، بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: إني أحب أن يغفر لي، فرجع النفقة التي كان ينفقها على مسطح وقال: لا أنزل عنها أبدًا[(١)].

۞ هذه الحادثة وإن كانت لا تتوافق في كل الجوانب مع ما أوردناه من آيات في توجيه النبي ﷺ توجيهًا مباشرًا إلا أنها تتفق معها في جوانب أخرى من المفهوم حيث أن الله تعالى هو الذي تولى الرد على هذه الشائعة عن النبي ﷺ، لم يتعرض نبي قط في حياته لمثل هذه الحادثة ولم يواجه نبي قط مثل ما واجه النبي ﷺ في

---

(١) أخرجه البخاري في فتح الباري (٥/ ٢٦٩) (ح٢٦٦١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩) (ح٢٧٧)، وأحمد في الفتح الرباني (٢٢/ ١١٦) (ح٩٣٩)، والترمذي (٥/ ٣٣٢) (ح٣١٨٠)، وابن جرير (١٨/ ٧١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٥٠) (ح١٣٣)، والبيهقي في الدلائل كلهم من طريق الزهري.
للمزيد عن القصة عند أصحاب التفسير ابن جرير وابن كثير وفتح الباري والمعجم الكبير للطبراني.

هذه الحادثة، صحيح أن بعض الناس ألصق ببعض الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ شيئًا مثل ذلك ولكن كان هذا بعد موتهم بفترات طالت أو قصرت ولم يكن ذلك في حياتهم.

هذه الحادثة غريبة جدًّا عن الأحرار من المجتمع العربي فلا يمارسها إلا هم أراذل القوم مع الإماء والعبيد والقليل جدًّا من السادة، فهي بعيدة كل البُعد عن هذا المجتمع، ولم يرم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل هذه الجرائم وهو في مكة لأنهم يعلمون ذلك، وقد سببت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلامًا كبيرة، فقد تحمل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيذاء البدني الذي لحق به وبأصحابه حتى أنهم تركوا الوطن والأهل والديار والأموال في سبيل الدعوة، ولم يكن ذلك بالتأثير الذي تتركه مثل هذه الجرائم، ولذلك ضيق الله تعالى في إثبات تلك الجرائم أن جعل شرطًا لإثباتها أربعة شهود عدول مشهور عنهم العدل، ولو اختل شرط لا تثبت تلك الجريمة ولا يقام الحد على من رمي بها، وشرط الشهود أن يكون كل منهم رأى بعينيه تلك الواقعة ولا يشهد على شهادة غيره من الناس.

يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٤]، ولكن رمي بها بيت النبوة وانقطع الوحي لمدة شهر ووقع في ذلك كثير من الصحابة فضلًا عن المنافقين، ولا تتحقق جوانب إقامة الحد، فالناس كثيرًا ما يتحدثون ولكن لم ير أحد ذلك، ويبلغ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغضب مداه، فيستشير أصحابه: هل رأيتم سوءًا على أهلي؟ ولم يجد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجابة شافية تردع هؤلاء في قولهم ثم يصعد المنبر ويخطب في الناس: «**ما قولكم في رجل بلغني أذاه في أهلي؟**»، وتكاد تحدث فتنة بين الصحابة داخل المسجد والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما زال على المنبر، وقبلها سأل الجواري في بيته، وكل ذلك ولم يجد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحل لهذه الحادثة، لكن لابد لهذا الأمر أن ينتهي، ومشاغل الدعوة كثيرة وهناك مهام كثيرة يجب أن يقوم بها، ويفضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينهي هذا الأمر ولو على حساب نفسه فيذهب

إلى السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ويخبرها أنها إن كانت بريئة فسيبرئها الله تعالى، وإن كانت ألمت بذنب فلتستغفر الله تعالى فإنه يقبل توبة التائب المقر بذنبه، هذا معناه إسدال الستار على هذا الموضوع، وإن كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيش بقية حياته وفي جبينه هذه الوصمة، لكنه يريد إنهاءه ليتفرغ لمهام الدعوة غير أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والمسلمين جميعًا كانوا على موعد آخر مع السماء موعد مع الله تعالى.

وينزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوجيه والتفريج لهذه الغمة التي لحقت به وبأهل بيته مدة من الأيام عاش خلالها أيامها صعبة شديدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى نهاية الآيات العشر من سورة النور، وكانت هذه الحادثة درسًا قاسيًا من دروس التربية العملية للمسلمين، خرج منه المسلمون بفوائد كثيرة ما كانوا يتعلمونها لولا قدر الله هذه الحادثة، والتي منها:

أولًا- تتحدث الآية عن أن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم، وهذا يدل على أنه من المسلمين من يندس بينهم ويأتي بالخطر عليهم.

ثانيًا- تذكر الآية أن ذلك خير لكم وليس شرًّا، والخير يكمن هنا في أنه يجب على المسلم أن يتحرى القول فيما يسمع ولا ينساق وراء كل ما يسمعه، وهذا أيضًا ما كانوا يتعلمونه لولا هذه الحادثة.

ثالثًا- هذه الفرية لحقت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته وهو أطهر بيت، وهذه إشارة إلى أنه ليس هناك أحد يسلم من الافتراءات، فمن لحقت به مثل هذه الأشياء ليست نهاية الدنيا، وهناك دروس كثيرة تحدث عنها العلماء جزاهم الله خيرًا، ليس هنا مجالها إنما هنا تسليط الضوء فقط على التوجيهات القرآنية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ƷƿƐ ǂ ūǩƭƿ Ƥǩǩƌǩƚ ǴØΣ Ǹqǩƚ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾.
[القصص:٥٦]

۞ قال الزهري: عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله** سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يعرضها عليه ويعاودانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: أنا على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**»، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[1].

۞ تقدم الحديث عن أبي طالب في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣]، ونضيف هنا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان شديد الحرص على إيمان أبي طالب لما لإيمان هذا الرجل من فوائد كثيرة، منها ما يعود على أبي طالب شخصيًّا وإنقاذه من الكفر وما يعود على بني عبد المطلب عامة، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يعرض عليه الإسلام في كل وقت وينتظر هذه اللحظة التي يسمع فيها إسلامه

(١) أخرجه البخاري في فتح الباري (٨/ ٥٠٦) (ح٤٧٧٢)، ومسلم (١/ ٥٤-٢٤)، وأحمد في الفتح الرباني (١٨/ ١٦٥) (ح٣٠٠)، وابن جرير (٢٠/ ٥٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٤٩) (ح٨٢٠)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٤٢-٣٤٣) من طريق الزهري عن سعيد عن أبيه.

حتى آخر حياة الرجل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض عليه ويدعوه وينتظر.

ولعل في هذا منهج للداعي، أن يحرص على هداية الناس إلى آخر حياتهم وحياته كذلك، ولم يحقق أبو طالب رغبته، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل له جميلًا وحبًّا شديدين دفعه هذا الحب إلى أن يقول: «**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**».

وينزل الوحي بالتوجيه القرآني على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليوجه رأيه إلى توجيه آخر غير الذي أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾، فيمتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الاستغفار له بتوجيه القرآن الكريم.

❁ ❁ ❁

ǯƿƐ ǂ ǖǩƚƿ ǚƛƚƐǩƚ ǴǾƩ Ǹqǩƚ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

۞ روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

۞ وقال ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان: قال: سألني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فذكرت له، فقال: لا، ولكن الله تعالى أعلم نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها ستكون إحدى زوجاته قبل أن يزوجها فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»، فقال: «**قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه**»، وهكذا روي عن السدي مثل ذلك[(١)].

۞ وقال ابن جرير عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: لو كتم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

۞ روى الإمام أحمد عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما انقضت عدة زينب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزيد بن حارثة: «**اذهب فاذكرها عليَّ**» فانطلق حتى أتاها وهي

---

(١) نقلًا عن ابن كثير (٢/ ١٨٥٩-١٨٦٠).

تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر ربي تعالى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن الكريم[١].

۞ كان المجتمع في الجاهلية يتخبط في عادات وتقاليد وضعوها من عند أنفسهم، والتي على رأسها عبادة الأصنام وما يتبع ذلك من فساد في العقيدة والأخلاق، وجاء الإسلام ليصحح تلك العقيدة الفاسدة والأخلاق السيئة، وكان من هذه العادات عادة التبني، وكان الابن من التبني يأخذ كل حقوق الابن من النسب، بداية بحمل اسم الأب بالتبني وانتهاء بحقه في الميراث، ولاشك أن هذا يحدث ضررًا بالأبناء من النسب ويلحق بهم الأذى ويجعل الاختلاط مباحًا دون حرج، فأخذ الإسلام يبطل هذه العادات واحدة بعد الأخرى، ولابد للناس من قدوة في هذا المجال، وعند إبطال هذه العادة التي استحكمت في المجتمع كان لابد للإسلام أن يبدأ برسول الله ﷺ، وكان زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها والتي هي زوج ابنه بالتبني.

هذا الزواج الذي خاض فيه أعداء الإسلام كثيرًا، ظنًّا منهم أنهم وجدوا ضالتهم ووجدوا مدخلًا يطعنون في رسول الله ﷺ ويقلبون فيه الحقائق والأوضاع، وأنى لهم ذلك، فإن الآيات ترد كيدهم وتفضح نواياهم، ومجمل القصة كما ذكرها المفسرون وأصحاب السير:

كان ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة قبل البعثة وكان يدعى زيد بن محمد، وكان النبي ﷺ يحبه كثيرًا، وقد زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش، والتي هي

(١) المرجع السابق.

بنت عمته صفية بنت عبد المطلب لحبه له وقربه منه، وكان الله تعالى قد أوحى إلى نبيه كما تخبر إحدى الروايات السابقة أن زينت ستكون إحدى زوجاته وهذا الوحي غير قرآني، وذلك ليبطل الله تعالى هذه العادة، فأخفى النبي ﷺ ذلك الأمر أولًا في نفسه لما في ذلك من إحراج شديد على النفس، ولم يكن ﷺ يعلم في بادئ الأمر أن ذلك تشريع، وجاء زيد بن حارثة ليشتكي من زينب، فأشار عليه أن يمسك عليه زوجه وأن يتق الله فيها.

وينزل الوحي على النبي ﷺ بالتوجيه القرآني موجهًا له ومعاتبًا في نفس الوقت لكنه كان عتابًا شديدًا على النبي ﷺ وينزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾، هذه الآية من أشد ما نزل في عتاب الرسول ﷺ إن لم تكن أشد عتاب نزل عليه على الإطلاق، ولكنها في نفس الوقت تظهر مدى ما كان يتحرج منه ﷺ غاية من الحرج في زواجه من زينب بنت جحش، وأنها زوجة ابنه بالتبني، انظر إلى هذه الكلمات من الله تعالى لنبيه ومصطفاه ﷺ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس، والله أحق أن تخشاه، هذه الجمل الثلاث ثقيلة جدًّا على رسول الله ﷺ خاصة وأنها من رب العزة تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بل هي أثقل ما عوتب به النبي ﷺ في القرآن الكريم، ولذا قالت عنها السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لو كتم محمد شيئًا من الوحي لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾»، ليبطل الله تعالى هذه العادة، وكل ذلك حدث بتقدير الله تعالى وفي ذلك حكمة كبيرة حيث أن الله تعالى يعلم مسبقًا أن

أعداء الإسلام وأعداء النبي ﷺ سيخوضون في هذا الزواج، وفي هذا التشريع فأنزل الله تعالى ما يرد على مزاعمهم وافتراءاتهم، وقدر الله تعالى ما يوضح ذلك.

وطلق زيد بن حارثة زوجته زينب بنت جحش وبعد انقضاء العدة، وتزوجها النبي ﷺ بأمر من الله تعالى، ذلك الزواج الذي كانت تفخر به زينب على باقي أزواج النبي ﷺ.

لو نظر أعداء النبي ﷺ وأعداء الإسلام عامة بعين البحث المستقل دون المؤثرات لا أقول بعين الإنصاف، ولكن أقول بعين الباحث عن الحقيقة لوجدوا ان هذه الآية وحدها دليل على نبوة محمد ﷺ، ولعرفوا أنه نبي آخر الزمان، وأنه يتلقى تعاليمه من ربه تعالى، ولعرفوا أيضًا أن هذا القرآن منزَّل من عند الله تعالى، وأنه لا دخل للنبي فيه إلا أنه يبلغه للناس، هذه الآية لو لم ينزل من القرآن غيرها لكفت في إثبات نبوة محمد ﷺ وأن القرآن هو كلام الله تعالى.

وأنهم لو قرءوا الآية من أولها إلى آخرها لوجدوا الحرج الشديد الذي كان عليه النبي ﷺ في تطبيق هذا الأمر، وأنه لم يقدم عليه أولًا حتى عاتبه الله تعالى عتابًا شديدًا في ذلك، ولعلموا أيضًا العلة من هذا الزواج ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ حرف العليل الموجود في الآية هو حرف «كي»، وحده يردع كل الحجج الباطلة ويفندها إلى يوم الدين أي ما حدث قبله علة لما بعده ولبيان سببه.

وما أعجبني بل وما أدهشني كثيرًا في هذا: هو موقف سيدنا زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويزيد الموقف إعجابًا كما في رواية أحمد: لما انقضت عدة زينب أمر النبي ﷺ زيد بن حارثة أن يذهب إلى زينب يذكرها له، ولما ذهب إليها وجدها تخمر عجينًا لها، قال: لما رأيتها عظمت في صدري ولم أستطع أن أنظر إليها، وأنا أقرأ هذه القصة عند هذه الكلمات وقفت وبكيت كثيرًا ولم أستطع مواصلة القراءة وبعد أن هدأت نفسي أخذت

أكمل القراءة فقرأت قوله: «يا زينب أبشري إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرك»، والله عاودني البكاء مرة ثانية كثيرًا، وأخذت أفكر فيما وصل إليه أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رقي في الفكر والشعور وحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنهم وصلوا إلى أبعد الحدود في هذه الصفات، الذي لم يصل إليه أحد لأحد، وأظن أنه لن يصل إليه أحد بعدهم إلا من رحم ربك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

هي زوجة الرجل منذ أشهر قليلة ومع ذلك هو الذي يخطبها لغيره ولا ينظر إليها لأن شأنها قد علا وارتفع بمجرد أن ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويزف إليها البشرى بنفسه، ونفسه راضية بذلك وهو سعيد غاية السعادة أن يكون هو الذي يبشرها بذلك، أتركك لتعيش مع هذا الموقف ولا تعجب فإنهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي النهاية يتوجه النبي بتوجيه القرآن ويفعل ما أمره به ربه تعالى.

ǯpƩ ‡ ūǩłp 5 ǭǨŪǩł ǴǾƩ Ǹqǩł

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.
[التحريم:١]

۞ في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف، ما بين أنها نزلت في جاريته وأم ابنه إبراهيم، أو بسبب جارية أخرى أو بسبب العسل الذي أكله عند السيدة حفصة بنت عمر أو أكله عند زينب بنت جحش أو أكله عند سودة بنت زمعة، في ذلك روايات كثيرة ولكننا نكتفي بأصح الروايات وأقربها.

۞ عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب الحلواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فدخل على حفصة بنت عمر أكثر مما يحتبس فعرفت فسألت عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت منه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شربة فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، إذا دخل عليك فقولي: يا رسول الله أكلت مغافير فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحله العرفط، وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك، قالت: تقول سودة بنت زمعة: فوالله ما هو إلا أن أقام على الباب فكدت أن أباده بما قالت لي عائشة، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «**لا**»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «**سقتني حفصة شربة عسل**»، قالت: جرست نحله العرفط، قالت: فلما دخل علي قلت له مثل ذلك، فلما دخل دار صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله أسقيك عسلًا؟ قال: «**لا، لا حاجة لي فيه**»، فقالت سودة بنت زمعة: سبحان الله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي[١].

(١) أخرجه البخاري في فتح الباري (٩/ ٣٧٤) (ح٥٢٦٨)، ومسلم (٢/ ١١٠١) (ح١٤٧٤)، وأبو داود (٤/ ١٠٦) (ح٥٢٦٨)، والنسائي جامع الأصول (٢/ ٣٩٧).

۞ روى البخاري أيضًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلًا عند زينب بنت جحش فلن أعود له**»، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا ﴿**تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ**﴾ هكذا أورد الحديث بهذا اللفظ[1].

۞ وفي كتاب الأيمان والنذور عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلًا فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها، فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال: «**لا، بل شربت عسلًا عند زينب بنت جحش ولن أعود له**»، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**﴾.

۞ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرص على الطهارة في كل شيء وفي كل شأن من شئون حياته، في مأكله ومشربه وملبسه وفي أقواله وأفعاله وفي كل أمور حياته، حتى أنه جعل الاغتسال من سننه في كل تجمع للناس فلا يظهر منه إلا الطيب الذي يبعث على الارتياح النفسي للآخرين، وكان يأمر أصحاب بذلك، وجعل ذلك سنة لهم يتبعونها، فجعل النظافة من الإيمان، الاستنجاء بعد قضاء الحاجة، والغسل بعد الجنابة، وإكرام الشعر، وقص الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والسواك، وتطهير الثوب، والمكان في كل شيء من هذا القبيل، وضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسلمين سنة في ذلك، وكل ذلك ليحافظ على الهيئة الإسلامية وعلى شخصية المسلم حتى لا ينفر الناس منه، وحتى يألف الناس ويألفونه فيبلغهم دعوة الله تعالى، وقد حدث كما تقول الروايات أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تناول طعامًا كان يحبه عند إحدى زوجاته وقد أخبره باقي زوجاته اثنين منهن أو ثلاثة

(١) نقلًا عن ابن كثير (٢/ ٢٢٦٨).

أن هذا الطعام يبعث منك رائحة كريهة، وكان ذلك ليس صحيحًا وإنما كان على سبيل الغيرة بين النساء من بعض نسائه رضوان الله عليهن، فتذكر النبي ﷺ خطر ذلك عليه وعلى الدعوة وكيف يجلس الناس معه وهو على تلك الحالة، فرأى أن يحرم هذا الطعام على نفسه والذي سيكون سببًا في إيذاء الناس، وكان هذا من منطلق الحرص الشديد الذي كان عليه النبي ﷺ في الحفاظ على شعور أصحابه الذين يجلسون معه، وكان قد نهى من أكل بصلًا أو ثومًا أن يجلس مع الناس حتى تزول تلك الرائحة، فقال ﷺ: «**من أكل بصلًا أو ثومًا فليعتزل مسجدنا**»(١).

فكيف ينهى عن شيء ويفعله، ورأى ﷺ أن يحرم هذا الطعام على نفسه رغم أن هذا الطعام حلال ولم يحرمه الله تعالى ورغم أنه يحبه.

وينزل الوحي على النبي ﷺ بالتوجيه القرآني من الله تعالى في صورة عتاب له بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، هذا التوجيه من الله تعالى لنبيه يقول له: يا أيها النبي ليس ما أقدمت عليه صوابًا وليس هو الحل الصحيح، نحن لم نحرم عليك هذا الطعام فلماذا تحرمه أنت على نفسك من تلقاء نفسك، ليس لك الحق في ذلك وليس هذا من اختصاصك، وإن كان ما قالوه حقًّا كان ينبغي عليك أن تعالج الأمر بغير ما فعلت، أن تبعتد قليلًا حتى تزول الرائحة، أو تستعمل شيئًا من شأنه أن يزيل الرائحة، لكن ما أقدمت عليه من تحريم شيء أحله الله تعالى ليس هذا من اختصاص أحد إلا الله تعالى، ونجد النبي ﷺ يتوجه بتوجيه الله تعالى ويكفر عن يمينه الذي أقسمه بعد أكله لهذا الطعام.

ثم يتجه القرآن الكريم إلى اللائي دبرن هذه الحيلة أو اللتين دبرتا هذه الحيلة بتحذير شديد كان من شأنه أن يوقع النبي ﷺ في أمر محذور وهما السبب في ذلك، وقد

(١) البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد.

سببتا له حرجًا شديدًا مع ربه تعالى، وعليهما أن يتوبا إلى الله تعالى وإلا سوف يؤمر النبي ﷺ بطلاقهن جميعًا أو بطلاق من تسببتا في ذلك، ويبدله الله تعالى خيرًا منهن لا يفعلن من هذه الأشياء شيئًا، وعلى الفور وجدنا نساء النبي ﷺ رجعن أو رجعتا وتابا إلى الله تعالى عما فعلتا معه وقبل الله تعالى توبتهما: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ǯƿƩ ǂ ǖǩŧƿ Ƶ YƘ ʂ ǩŧ ǴǾ Ʃ Ǹɋǩŧ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس:١-١٠].

۞ الأعمى هو عبد الله بن أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبيّ وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه منشغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقطعه كلامه فعبس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرمه بعد ذلك وإذا رآه يقول: «**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي**»(١).

۞ عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجال من عظماء المشركين فجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض عنه ويقبل على الآخرين، ففي هذا أنزلت: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾(٢).

۞ في أوائل الدعوة والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحشد كل إمكاناته وطاقاته لدعوة الناس إليها، وكان يرى أنه في إسلام سادة قريش وعظمائها دفعة قوية لها، لذا كان يوجه

---

(١) أبو الحسن النيسابوري في أسباب النزول.

(٢) أخرجه الحاكم وابن جرير والترمذي وأبو يعلى، وتفسير ابن كثير، وابن مردويه، والإمام مالك في الموطأ (٤٧٦٤)، عن عروة مرسلًا وإسناده صحيح.

اهتمامًا كبيرًا لهؤلاء السادة لأن إسلامهم سيتبعه إسلام كثير من الناس بعدهم ويتحين الفرص التي تجمعهم به ولا يضيعها بل يسارع في عرض الدعوة عليهم، وهذه فرصة من الفرص التي ينتظرها جمعت بينه وبين مجموعة من سادة قريش منهم: أبو جهل، وعتبة ابن ربيعة، وعباس بن عبد المطلب، وأبي وأمية ابنا خلف، ومجموعة من أصحاب الرأي في قريش، وأراد النبي ﷺ أن لا تضيع هذه الفرصة دون أن يسمعهم دعوة الله تعالى خاصة ربما يكونوا قد أعاروا النبي ﷺ بعض أسماعهم، وربما وجد فيهم في هذه اللحظات بعض الليونة في قلوبهم وفي تلك اللحظة قام عبد الله بن أم مكتوم الرجل الأعمى رضي الله عنه، وهو لا يدري انشغال النبي ﷺ بهؤلاء القوم، يقول: يا رسول الله ﷺ علمني مما علمك الله، والرسول ﷺ منشغل مع هؤلاء فلم يجبه، وأخذ ابن أم مكتوم يلح على النبي ﷺ والرسول يعرض عنه حتى ظهرت الكراهية في وجه الرسول ﷺ، وهو لا يريد أن يقطع الحوار الذي بدأه معهم، ربما لا يتكرر هذا الحوار معهم، وما زال عبد الله يلح والنبي ﷺ يعرض عنه فعبس وأعرض عنه.

وينزل الوحي بالتوجيه الرباني على النبي ﷺ في صورة عتاب له ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ عشر آيات في صدر سورة عبس في شأن هذا الموقف.

وبالنظر إلى أول آيتين نزلتا، جاءتا بأسلوب الغائب وكأنها إشارة من الله تعالى للنبي ﷺ بأننا أعرضنا عنك كما أعرضت عن هذا الرجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أسلوب فيه إعراض والغرض منه معاتبة النبي ﷺ ثم ينتقل الأسلوب بالتوجيه المباشر بأسلوب المخاطب، الذي أوضح له أن حرصك على دعوة

المعرضين عن الدعوة يضيع عليك فرصة الطالبين لها والذين يسعون لمعرفتها والتفقه في الدين، وأن هؤلاء سمعوا كثيرًا من الآيات ووقفوا معاندين لها، يصدون من آمن بها، فلا تصرف وقتك معهم بل اصرفه مع الذين جاءوك، ونجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوجه بتوجيه الله تعالى له، ويكرمه بعد ذلك، وكلما رآه يقول له: «**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي**».

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله تعالى لي من جمع لبعض الآيات والتعليق عليها والتي تضمنتها فقرات هذا الكتاب (من التوجيه القرآني للنبي ﷺ)، وبالطبع ليس هذا هو كل التوجيه القرآني للنبي، ولكن هذا من التوجيه القرآني وليس كله التوجيه، فما كان من صواب فهو محض فضل الله تعالى عليَّ، فله الحمد وله المنة، وما كان من خطأ، فأستغفر الله العظيم وأتوب إليه والله بريء منه ورسوله، وحسبي أني كنت حريصًا أن لا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني كل من يقرأه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه المسلم بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، كما أدعو الله تعالى أن ينفع به كل من يبحث عن الحقيقة وأن يهديه الله تعالى إلى سواء السبيل.

وأختم كلامي بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

كتبه

محمد أحمد هاشم

الفهرس

المقدمـة.....٥
في عقيدة المسلم.....٨
التوجيـه الأول.....١٧
التوجيه الثـاني.....٢٠
التوجيه الثالث.....٢٣
التوجيه الرابـع.....٢٥
التوجيه الخامـس.....٢٨
التوجيه السادس.....٣١
التوجيه السابع.....٣٤
التوجيه الثامن.....٣٨
التوجيه التاسع.....٤٠
التوجيه العـاشر.....٤٤
التوجيه الحادي عشر.....٤٦
التوجيه الثاني عشر.....٤٩
التوجيه الثالث عشر.....٥٢
التوجيه الرابع عشر.....٥٥
التوجيه الخامس عشر.....٥٩
التوجيه السادس عشر.....٦٣
التوجيه السـابع عشر.....٦٧
التوجيه الثامن عـشر.....٦٩

التوجيه التاسع عشر.....٧١
التوجيه العشرون.....٧٥
التوجيه الواحد والعشرون.....٧٨
التوجيه الثاني والعشرون.....٨١
التوجيه الثالث والعشرون.....٨٨
التوجيه الرابع والعشرون ٩٠
التوجيه الخامس والعشرون.....٩٥
التوجيه السادس والعشرون.....٩٩
الخاتمة.....١٠٢
الفهرس.....١٠٣

~